أحمد جاد

رواية
حاضر عن الفقيد

obeikan.com

الكتـــــــــاب: حاضر عن الفقيد

المـــؤلـــــف: أحمد جاد

تصميم الغـــلاف: إسلام مجاهد

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 20407 / 2016

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 126 - 7

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 40 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0227931911 - موبايل: 01001631173

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

أحمد جاد

رواية
حاضر عن الفقيد

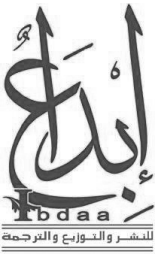

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى كل باحث عن الحقيقة في هذا العالم الذي ارتضى الزيف منهجًا وسبيلاً.

obeikan.com

obeikan.com

حتمًا ستفعل الحياة فعلتها معنا

ستنقضي وما زالت قلوبنا معلقة فيها بأشياء لم تكن ولن تكون لنا

أحمد جاد

obeikan.com

obeikan.com

(١)

لم أكن يومًا راضيًا بحياتي، ولن أرضى عنها إن سارت على ذلك المنوال، حتى وإن لم ير فيّ أحد ما يمنحني الحق في حياة أفضل، فأنا وحدي من يعاني ذلك الصراع الذي أعيشه بين المكتوب والمأمول؛ المكتوب الذي أسس لحياة بائسة ترتكز على ماضٍ كئيب وتواصل طريقها نحو مستقبل بائس، والمأمول الذي لا يرتكز على شيء سوى أحلام ذات أيدٍ خالية الوفاض، فالحلم وحده هو ما يمنحني الحق في الحياة، فلولا أحلامي التي يصاحبها الأمل في اللاشيء، لكنت وأدت نفسي التراب من زمن بعيد.

بالحلم فقط أستمد حقي في الحياة، فلا مؤهل جامعي يمنحني الفرصة لوظيفة محترمة، حتى وإن لم تمنحْنِ

المال الكافي، ولا حرفة تعلمتها من صغري كنت سأجد منها طريقًا لجني المال. فقد صارت حياتي كما صارت، لم أتدخل يومًا لتعديل مسارها، سرت فيها معتوهًا لا أمارس في حياتي سوى الأحلام. شغلتني أحلامًا عديدة أن أكون طبيبًا أو ضابطًا أو مذيعًا لامعًا، ولكن تبخرت كل أحلامي مع حصولي على مجموع في الشهادة الإعدادية لم يؤهلنِ للالتحاق بالثانوية العامة، كان هناك وقتها مدرسة تُسمى مشروع "مبارك كول" لنظام التعليم الصناعي، ولكنه نظام يعمل على تخريج كفاءات فنية تخرج بعد خمس سنوات إلى سوق العمل مباشرة، هكذا حدثني عنها أحد أصدقاء أبي؛ حيث اتخذا مجلسهما ذات ليلة عند مدخل بيتنا كما اعتاد أهالي الحارة أن يجلسوا على أبواب منازلهم يتسامرون هربًا من حر الصيف القاتل، الذي يخرج لهيبه من جدران تلك البيوت القديمة التي لا يزيد ارتفاع البيت منها عن طابقين أو ثلاثة، تراصت في شارع طويل يقترب كل صف منه من الآخر لدرجة تكاد معها أن تمد يدك لمصافحة

الشخص الواقف في الشرفة المقابلة لشرفتك، شارع كئيب يتدخل كل أهله في شؤون بعضهم البعض تمامًا كما تتداخل روائح مطابخهم في بعضها البعض، فتنتج عنها رائحة طبيخ حامض تكسو الشارع بأكمله.

ولكن تدخل جليس والدي أسعدني حينها، فقدأعطاني بصيصًا من الأمل في الالتحاق بنظام تعليم يكاد يقترب من نظام تعليم الثانوي العام، بل وأضاف وكأنه صديق قريب من مبارك أو من الألماني كول، أن المدرسه تمنح فرصة للمتفوقين للسفر إلى ألمانيا، قالها وقد اتسعت عيناه ومشيرًا بيده إلى آخر الشارع وكأن حدود ألمانيا تبدأ من نهاية شارعنا. راودتني أحلامي في تلك الليلة في السفر إلى ألمانيا، نعم سأجتهد وأتوفق في المدرسة حتى أحصل على فرصة السفر إلى ألمانيا، وأدخرثروة وأتزوج أجنبية، وأعود لأسكن في المهندسين وأنسى منطقة مطار إمبابة ورائحة طبيخ شارعنا. ولكن تبخر حلمي في الصباح التالي، عندما ذهبت إلى تلك المدرسه وأبلغوني أن مجموعي لا يؤهلني

حتى للالتحاق بها.

التحقت بعدها مرغمًا بمدرسة للتعليم الصناعي التقليدي، ولا أدري حتى اليوم كيف منحني الله القوة لأتحمل ثلاث سنوات من العذاب النفسي في تلك البيئة التي كان البقاء فيها للأقوي والأكثر انحرافًا، تحملت سنواتها مجبرًا، كنتُ لقمة مستساغة لأشقيائها، لم أتمكن من الاندماج معهم، ولم أتمكن من صد شرورهم، كنت ضعيفًا ومنكسرًا دومًا، ورثت ذلك الضعف والانكسار عن أبي الذي كان يحيا فقط لأجل الحياة، كان يتحمل أي مضايقة أو تحرش لفظي من أي شخص دون رد حتى تمر الحياة بسلام، كان يعتقد أن الضعف حيلة سيتغلب بها على الحياة التي هزمته من قبل؛ بعد أن خطف الموت أمي وأنا ابن الست سنوات، ثم هزمته الحياة مرة أخري عندما باغتته بمرض الكبد بعد وفاة أمي بعامين، لم أعرف له يومًا قريبًا أو صديقًا غير بعض أهل الحي مما كان يجالسهم ويجالسونه على أبواب البيوت في حارتنا، كنت أقرأ نظرات الاستهانة بنا كأسرة

في عيون كل أهل المنطقة، حتى الأطفال الصغار ممن كانوا يطرقون محل العطارة الذي يملكه أبي لشراء أكياس حمص الشام التي كان يعبئها لهم من العربة التي كان ينصبها أبي أمام المحل في الشتاء، فكان هؤلاء الأطفال لا يتورعون عن مناداة أبي باسمه (علي) مجردًا من أي لقب كعم على أو الحاج علي.

أما عربة حمص الشام تلك فكانت وصمة العار التي وصمني بها زملائي الجبابرة في المدرسة، فمنحوني لقب (حمصة) فكان أمـرًا قاسيًا ومهينًا بشكل لم يتخيله أحد، حاولت التصدي للأمر في بداياته منعًا لانتشار اللقب، فنالني ما نالني من الضرب والإهانة من هؤلاء الجبابرة، حتى انتشر اللقب في ربوع المدرسة حتى صار المدرسون أنفسهم ينادونني به، لم يكن لديهم علم بأسباب تسميتي بهذا اللقب، ولكنهم لم يختلفوا عن أي شقيّ من طلبة المدرسة، اتفقوا معهم على إيذائي نفسيًا دون أن يرهقوا أنفسهم في البحث عن حقيقة ما أصابني من إهانة وذل جراء معايرتي

بباب رزق أبي.

لم يكن لدي حل سوى الاستسلام للأمر الواقع حتى يصير الأمر أمام الجميع وكأن ذلك اللقب شيء عادي لا يمثل إهانة لي، حتى أني نسيت اسم (كريم) المكتوب في شهادة ميلادي، فعلت ذلك حفاظًا على الباقي من كرامتي في هذه الغابة، ولكن لم يعلم أحد بما كان يعتصرني من ألم نفسي جراء مناداتي بذلك اللقب.

كانت شهادة إعفائي من لقب (حمصة) أهم بكثير من شهادة حصولي على دبلوم الصنايع، والحمد لله أنني لم أحتفظ بأي صداقات من تلك الغابة، كانت وبلا شك ستضمن استمرار ذلك اللقب معي فيما سيتبقي من حياتي، وهو الأمر الذي كنت أحدسه جيدًا أثناء الدراسة؛ فكان امتناعي عن الارتباط بصداقات من المدرسة قرارًا نجحت في تنفيذه جيدًا حتى أتخلص تمامًا من أي شيء قد يربطني بذلك العالم البائس، عالم مدرسة الصنايع، ذلك العالم الذي هو جزء من عالم أكبر، اختارني القدر لأكون من بؤسائه.

سألت نفسي كثيرًا إلى أي جزء من العالم أنتمي؟ وإلي أي جزء من العالم ستمضي حياتي؟، ولكن الحقيقه أنني لا أنتمي إلى أي عالم، فقط أنتمي إلى غابة يطلقون عليها العالم الثالث.

*****

بعد حصولي على الدبلوم، رفضت رفضًا قاطعًا العمل مع أبي في محل العطارة، بعد أن كان يعفيني من مساعدته فيه أيام الدراسة، ظنًا منه أنه يفرغني للدراسة والتفوق، رفضت العمل معه؛ فحياتي بها ما يكفيها من آلام ولن تتحمل أن أدفن نفسي بين العطارة وعربة حمص الشام، فقضيت أربع سنوات متنقلا بين عشرات المهن والحرف، أربع سنوات قضاها من هُم في سني في الجامعة وحياتها التي طالما حلمت بها، عملت "صبي ميكانيكي فاشل" لا يتعدي دوره جمع العدة ورفع السيارات، ثم تنقلت بين العمل في المقاهي ومحلات الكشري وعربات الكبدة والسجق حتى انتهى بي المطاف بعد أربع سنوات؛ فحصلت على وظيفة

عامل دليفري في أحد المطاعم الكبري بشارع جامعة الدول العربية، ومنحوني وقتها بطاقة تعريف ملصوقة على اليونيفورم كانت بمثابة شهادة تخرجي من سوق العمل بعد أربع سنوات ومكتوب عليها (طيار).

obeikan.com

(٢)

زاد سخطي على حالي، بعدما كنت أتصور أن الرضا سيتملكني بالحصول على لقب طيار، حتى وإن كان لقبًا زائفًا وليس هو في حقيقته سوى عامل توصيل طلبات، زاد سخطي على عالم مطار إمبابة الذي أتيت منه، وزاد سخطي على عالم منطقة المهندسين الذي أتيت إليه، فما زالت منطقة مطار إمبابة هي مثواي الذي آوي إليه كل ليلة، وما زالت منطقة المهندسين مجرد عالم أتحصل منه على رزقي نهارًا.

صار سخطي على العالم أكبر، العالم الذي يأبى أن يمنحني مكانًا بين هؤلاء، الذين لا يُعيروني أي اهتمام وسطهم سوى

obeikan.com

كوني عامل توصيل طلبات، نعم قرأتها في أعينهم أكثر من مرة، فلهفتهم إلى النظر إلى أكياس الطعام التي أحملها، كانت دومًا أسرع من أن يُعيروني أي اهتمام، حتى كلمة "شكرًا" إن قالها أحدهم فهو يقولها ويغلق باب بيته قبل أن يكملها.

راودني تفكيري كثيرًا أن يكون لي يومًا خطيبة جميلة وأنيقة مثل الفاتنات اللائي أراهن مع مرافقيهن من الشبان في صالة المطعم، أو أن يكون لي يومًا زوجة بجمال وجاذبية أولئك اللائي أقوم بتوصيل الطلبات إليهن، ولكنني كنت مدركًا أنه أمر بعيد المنال؛ فأنا بحالي هذا أنتظر معجزة من السماء، ولا شيئًا غير معجزة تنقذني من هذه البيئة، وتلقيني على الجانب الآخر من اليمّ، فلا مكان في حالي وإمكاناتي البسيطة للجملة التي قرأتها أو سمعتها ولا أعرف حتى قائلها:

وما نيل المطالب بالتمني* ولكن تؤخذ الدنيا غلابًا**

لا أدري حتى إن كانت غلابًا بكسر حرف ال "غ" أو فتحه،

فكل ما فهمته أن معناها أنه لا بد من القوة والمغالبة والسعي وراء تحقيق أحلامك، ولكني حتى لا أمتلك أي مقومات أستند عليها لتغيير عالمي.

*****

كان عزائي الوحيد في عالمي الجديد، هو طبيعة الشباب العاملين معي في المطعم فأغلبهم يحملون مؤهلات عليا ويتمتعون بشخصيات أرقى بكثير من تلك الشخصيات التي تعاملت معها سواء في مدرسة الصنايع، أو في عالم المقاهي وعربات الكبدة والسجق، كنت أشعر معهم أنني مثلهم ولا وجود لفروق تعليمية بيننا، ففي النهاية أنا زميل لهم في نفس العمل، ولذلك كنت حريصًا من بداية عملي معهم على التشبه بهم، فصرت حريصًا على أناقة ونظافة هندامي، فتغير شكلي نوعا ما إلى الأفضل، بعد أن عرفت منهم أنواع كريمات الشعر ومعطرات الجسم، وتغيرت اهتماماتي بعد حياة العزلة التي كنت فرضتها على نفسي طوال حياتي في مدرسة الصنايع وفي المقاهي وعربات

الكبدة، فكنت أشاركهم الاهتمام بمباريات الكرة حتى وإن لم يكن لديّ فريق معين أشجعه، فذهبت معهم أكثر من مرة إلى المقهي في شارع السودان بعد انتهاء ورديتي، لمشاهدة المباريات الأوروبية، ولكنها كانت حالات سعادة وقتية، ما إن تنتهي وآخذ طريقي للعودة إلى البيت حتى كانت تنتابني حالة عدم الرضا والسخط على عالمي البائس.

obeikan.com

(٣)

في ظل محاولات اندماجي مع الشباب من زملائي في العمل، نما إلى علمي أنهم بصدد التوجه في رحله إلى الإسكندرية لقضاء بضعة أيام في عروس البحر الأبيض المتوسط، شعرت برغبة عارمة في الذهاب معهم، فكم حلمت بتلك الرحلة عندما أحظى يومًا بأصدقاء، فاتحت أحدهم برغبتيي في الذهاب معهم، فوافق على استحياء ووجه يعكس الحرج من إبداء امتناعه عن القبول، حتى تبين لي الأمر من اتصال أحدهم بي مساءً بعد رجوعي إلى البيت، وفاجأني باعتذار الجميع عن مصاحبتي لهم، بحجة عدم توفر مكان بالشقة التي استأجروها.

تبينت حينها حقيقة انتمائي إليهم كصديق، فيبدو أنني فرضت نفسي عليهم في الوقت الذي لم يكونوا هم على ارتياحية لوجودي بينهم طوال ما مضي من وقت، كنت فيه مخدوعًا في كوني صديقًا لهم، فعادت لعنة مؤهلي تطاردني من جديد، فيبدو أنه سيقف عائقًا بيني وبين أن أجد لي مكانًا يرضيني في هذه الحياة.

بلغ التحدي بي مداه بعد الإحراج والصدمة التي سببهما لي زملائي في العمل، فقررت أن أصنع سعادتي بنفسي، انتويت أن أذهب في رحلة إلى الإسكندرية وحدي، متمنيًا أن ألقاهم هناك فيصرون على إقامتي معهم، فأتصنع وقتها الكبرياء ولا أعيرهم أي اهتمام.

جمعت ملابسي البسيطة في حقيبة صغيرة، واتجهت صوب موقف الحافلات المتجهة إلى الإسكندرية، وذلك بعدما أجريت اتصالا هاتفيّا بمديري في العمل معتذرًا عن متابعة عملي لمدة ثلاثة أيام بسبب مرض أبي، وذلك بعد أن نما إلى علمي صعوبة منح أي من العاملين إجازة في تلك الفترة،

بسبب خلو أماكن المجموعة التي سافرت إلى الإسكندرية.

رميت نفسي على كرسي في الحافلة المتجهة إلى الإسكندرية، بجوار شاب بدت عليه الأناقة إلى حد كبير، كان ذا شعر طويل ينسدل حتى نهاية رقبته حتى أنه لامس ياقة قميصه، مرتديًا نظارة طبية أنيقة يبدو منها أنه حكيم مثقف، لم يعرنِ أي اهتمام يذكر؛ كان منشغلا بمطالعة صحف ومجلات صغيرة تحوي أشعارًا وقصصًا وأخبارًا أدبية، تمنيت لو أن تسنح الفرصة للتعرف عليه، فذلك النموذج من المؤكد أنه سيكون فخرًا لي مصاحبته، ولكنه كان منشغلا ما بين القراءة وما بين مكالمة هاتفية جاءته من أحد أصدقائه.

كانت المكالمة كافية لتكوين صورة كاملة عن ذلك الشاب، حيث حوت تفاصيل شبه كاملة عن حياته، فهو يعمل كاتبًا بإحدي المجلات التي يحملها، كما أنه مستمتع بحياته إلى أقصى حد من الممكن أن أتصوره، فقد استرجع مع صديقه الذي كان يهاتفه، بعضَ مغامراتهما النسائية وما تخللها من شرب ومجون، تمنيت أن أكون مكانه وأن أحظى بحياته،

غير أن ما شغلني أكثر من ذلك هي تلك الحقيبة الصغيرة التي أسندها على ركبتيه، وطمأن من يهاتفه أن الأمانة التي يحملها في أمان تام.

*****

بعد نزولنا في موقف الإسكندرية، وأثناء تجمع الركاب حول باب الشنط أسفل الحافلة التي توقف سائقها في الشارع العام خارج الموقف بسبب ازدحام الموقف من الداخل، إذا بسيارة ميكروباص مسرعة حاولت تفادي سيارة أمامه، فصدمت اثنين من الركاب المنتظرين لحقائبهم من بينهم ذلك الكاتب الأنيق، فسحلتهم لمسافة أمتار رسمتها دماؤهم على الطريق، هرولت مع الجميع نحو تلك الجثامين التي كانت فيما يبدو مترددة في طريقها ما بين الموت والحياة، قلب الحاضرين في أجسادهم، ومددت أنا يدي لتناول حقيبة ذلك الكاتب، في تصرف أوحى للجميع بأنني أنتوي الحفاظ عليها.

بعد ما نال سائق الميكروباص ما ناله من توبيخ وإهانات

وتهديد، اتفق الجميع على أن يحمل المصابين في سيارته والذهاب بهما إلى أقرب مستشفى؛ صعد مجموعة من الحاضرين معهما وأنا بينهم حتى أكمل مهمتي بالحفاظ على حقيبته التي لا يعلم أحد سواي أنها تحمل أمانة كبيرة ينبغي الحفاظ عليها.

في المستشفى دبت الحركة وأعلنت الطوارئ لإسعاف المصابين، في حين هربت أنا إلى الحمام لاستطلاع أمر تلك الحقيبة بعيدًا عن أعين الجميع، انتابني الذهول من تلك الأوراق النقدية التي تحويها حقيبة الكاتب المصاب، لعب الشيطان في رأسي باتجاه الاستيلاء على تلك النقود والهرب بها فورًا بالإضافة إلى هاتفه الثمين الذي وضعه بالحقيبة قبل الترجل من الحافلة، ولكنني كنت أضعف من اتخاذ قرار مهم وعظيم كهذا القرار.

عدت إلى حيث كان من رافقونا إلى المستشفي، عرفت منهم أن المصابين في حاجة إلى نقل دم سريع خاصة ذلك الكاتب الذي عرفت وقتها أن اسمه (ماجد)، حيث إن فصيلة دمه

نادرة كما أبلغهم طبيب المستشفي، تذكرت وقتها أنني أحمل تلك الفصيلة النادرة التي تعطي دمها للجميع، لا أتذكر اسم تلك الفصيلة النادرة التي أحملها ولكنني أعلم فقط أنني أحملها، أخبرني بذلك طبيب المختبر الذي سحب مني كمية دم يومًا ما عندما كنت أتبرع بالدم للمستشفي الذي رقد به أبي يومًا ما من قبل.

صراعٌ نفسيٌّ كبيرٌ اعتراني ما بين التبرع بالدم لماجد حتى يتعافى وأسلمه أمانته التي أحملها، وما بين تسليم روحه لملك الموت، والهروب بتلك الأمانة.

*****

كانت حاجتي للتنعُّم بترف الحياة الذي ستجلبه على حقيبة ماجد، أقوى من إنسانيتي التي تحتم على التبرع له بالدم لإنقاذ حياته، فتخفيت في طرقات المستشفى لما يقرب من الساعة حتى تأكدت من أن روح ماجد قد أسلمت لبارئها، وسحبت أنا حقيبته وهربت خارج المستشفى.

(٤)

وجدت حقيبة ماجد لها مكانًا بين ملابسي في حقيبة السفر التي حملتها وتوجهت تلقاء موقف الحافلات المتجهة إلى القاهرة، كنت مهزوزًا وكانت نبضات قلبي المتلاحقة كفيلة بأن تتوقف من فرط سرعتها، في حين كنت أحاول السيطرة على أنفاسي السريعة المهزوزة؛ والتي كانت كفيلة بأن تؤكد لأي شخص قد يلاحظها أن أحمل خلفي مصيبة كبيرة، ولكن دقائق انتظاري في الموقف مرت سريعة بعد أن أنقذني القدر حين نادى منادٍ:

- واحد مصر، واحد مصر!

حملتني صاعقة من أمام شباك التذاكر بعد أن كدت أقترب

منه؛ لأستفسر عن أقرب أتوبيس متوجه إلى القاهرة، ورمتني داخل الميكروباص الذي جاء من خارج الموقف ينقصه راكب واحد، ليخطفني من قلب الحدث حاملاً حقيبتي على ركبتي، موجهًا نظري من الشباك إلى دماء ماجد التي ما زالت تروي الأسفلت خارج الموقف.

*****

انتابني الشعور بالندم فور تحرك الميكروباص، شعور خانق بمدى الجُرم الذي ارتكبته، حجر ثقيل دبَّ على صدري، دقائق معدودات مرت تمنيت فيها أن أكون في حلم، فأستيقظ منه لأتخلص من ذلك الإحساس بالألم الذي كاد يقتلني، فكرت في العودة إلى المستشفى فأترك حقيبة ماجد حتى يتسلمها أحد أقاربه، لكنه خوف من مجهول ما جعلني أتراجع عن فكرة العودة وتسليم الحقيبة.

دقائق معدودات أخرى، وسوس فيها شيطان ما في أذني، مبررًا الاستيلاء على حقيبة ماجد بكونه ميتًا بكل الأحوال، وما يُدريك أن تبرعك بالدم كان سيُنقذه، وما الذي يدفعك

للندم تجاه شخص خمورجيّ وزانٍ مثله، لقد نال عقابه جراء المعاصي والذنوب التي اقترفها في دنياه، إذن فأموال ذلك الفاسق غنيمة لي.

obeikan.com

obeikan.com

(٥)

كان الجو ملائمًا حين وصلت للبيت، لأختلي بنفسي وأحاول أن أسترجع شتات نفسي التي تبعثرت جراء قلقي وتوتري، فلحسن حظي أن أبي لم يكن موجودًا بالبيت حين وصلت حاملاً مصيبتي، فهرولت إلى غرفتي وأغلقتها خلفي بإحكام، وهممت بإخراج حقيبة ماجد، حتى قبل أن أستحم أو أغير ملابسي التي أصابها ما أصابها جراء الحادث.

عشر رزم من النقود هي ما وجدتها في الحقيبة، كل رزمة تحوي خمس وعشرين ورقة من فئة المائتين جنيه، خمسون ألف جنيه كاملة تحت يدي، كانت كفيلة بتسلل إحساس من السعادة والطمأنينة إلى قلبي، إحساس خلصني تمامًا من

obeikan.com

إحساس الذنب تجاه الفقيد ماجد.

دسست رزم النقود في دولاب ملابسي، وأخرجت هاتفه المحمول من الحقيبة، ثم أحضرت سكينًا ومزقت حقيبة ماجد إلى قطع جلدية صغيرة، صارت معها وكأنها بواقي من أقاصيص ورشة جلود، ثم دسستها في كيس بلاستيكي أسود بعد أن خلطها ببواقي قمامة بيتنا، وطرحتها جانبًا عاقدًا العزم على أن أتخلص منها بنفسي في مقلب قمامة بعيد عن بيتنا عند الخروج من البيت.

*****

بعد أن منحت نفسي دشّا باردًا، هو الأروع في حياتي، والذي كان رغم روعته لم يمحُ رائحة أوراق النقود من يدي، اختليت في غرفتي بتليفون ماجد المحمول الذي نزعت شريحة اتصاله ومنحتها نفس مصير الشنطة بعد أن قطعتها إلى قطع صغيرة ورميت بها في المرحاض.

فتحت الرسائل المحملة عليه، كانت أول رسالة من رقم مسجل باسم أم عادل، رسائل متبادلة بين ماجد وأم عادل،

طلبت منه في رسالة أن يرسل لها الشهرية، عادل وأخواته البنات بحاجة إلى ملابس شتوية، دارت في ذهني أفكار عديدة، ربما كانت أم عادل نزوة من نزوات ماجد التي سمعته يتحدث عنها هاتفيّا مع صديقه قبل الحادث، ربما كانت زوجة لأبيه تكفل ماجد بمصاريفها ومصاريف أولادها بعد وفاة أبيه، وبالتوغل أكثر في سجل الرسائل بينهم كانت المفاجأة، أم عادل أرملة أنهكها الزمان في تربية أولادها اليتامي، وماجد بدوره متكفل بمصاريفهم.

أنهكت تلك المفاجأه تفكيري وعادت بي إلى حالة الإحساس بالذنب تجاه ماجد، الشاب الماجن الذي كان بالرغم من سكره ودناءَته، كان كافلاً للأيتام؛ عادل وأخواته؛ لم يعد إحساسي بالذنب فقط تجاه ماجد الذي قتلته بامتناعي عن نقل الدم له، صار إحساسي بالذنب مضاعفًا، بعد ما علمته من ارتكابي لجريمة منع كفالة اليتيم عن عادل وأخوته البنات.

obeikan.com

(٦)

هي الليلة الأسوأ في حياتي، ظل ماجد ملازمًا للفراش بجواري، أصحو فجأة مذعورًا على يد ماجد وقد طرحها على كتفي، فعلها أكثر من مرة حتى ضغط بأصابعه الخمس على كتفي في المرة الأخيرة، تلك المرة حاولت أن أنهض من الفراش فلم أستطع، كانت أصابع ماجد أقوي مني، تسللت أصابعه حتى انكفت على صدري، ظل ينبش في شعيرات صدري بقوة فخارت قواي ولم أستطع مقاومته في النهوض من الفراش، زاد شعوري بالشلل التام عندما شعرت بقوة خفية تشبه في الإحساس بها الرياح العاتية وتقاوم جسدي بأكمله، ظللت أرفُصُ بقدميَّ، وأشوّح بيديّ حتى تلاشت تلك القوة واختفت أصابع ماجد حين نهضت بسرعة البرق مذعورًا، فقد كان ماجد وأصابعه قوة ملموسة شعرت بها

obeikan.com

ولمستها على جسدي.

تحسست الفراش حولي فلم أجد أثرًا لماجد، كان كابوسًا مزعجًا أنهى سلسلة من الأحلام التي لازمتني فيها أم عادل طوال الليل، رأيت فيها أم عادل وابنها طفل صغير لم يتجاوز السنوات الست، كانا واقفين في طريق صحراوي يلفحهما البرد بلسعاته، أشارت أم عادل بيدها للسيارات المارة في الطريق فلم يُلَبِ أحد نداءها، في حين كان ابنها عادل ممسكًا بكلتا يديه في أطراف جلبابها مُخبئًا رأسه في ثوبها الريفي باحثًا عن الدفء في كرمشاته.

رأيت في حلم آخر أخت عادل وقد افترشت الرصيف جالسة وأختها الأخرى تطرح رأسها على قدميها نائمة بعد أن مددت قدميها الصغيرتين في نهر الطريق.

تركت الفراش مذعورًا واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، وقفت أمام المرأة الصامدة منذ سنوات بجوار باب غرفتي، بشروخها وبقعها التي ارتسمت عليها بفعل الزمن، اختلطت البقع والشروخ بشعيرات صغيرة من صدري تبعثرت فوق

ياقة الفانلة التي كنت أرتديها، والتي اتسعت بشكل فج لم تكن عليه قبل أن أنام وتنتابني تلك الكوابيس المخيفة، أمعنت النظر في المرأة محاولًا أن أكذب نفسي، وأرجعت الأمر إلى تشوهات المرأة، شلت يداي وتسمرت مكاني فجأة حين وضعت يدي على تلك الشعيرات التي تبعثرت على فانلتي، فحملت أصابعي شعيرات صغيرة مشدودة بفعل فاعل، ازدادت نبضات قلبي وارتجف جسدي واتسعت عيناي حين قربت كفي منها ورأيت بوضوح تلك الشعيرات.

*****

لم أجرؤ على العودة إلى الفراش بعد أن ناجيت ربي مستغفرًا في صلاة الفجر، فكرت كثيرًا أن أصلي الفجر جماعة في المسجد، ولكن خوفي من أن يواجهني شبح ماجد في الظلام الدامس منعني من ذلك، انتظرت حتى هلت نسمات الصباح وبعد تفكير طويل في طريقة للوصول إلى أم عادل بدون أن تنتابها أي شكوك تجاهي، اتصلت تليفونيًا بها وأخبرتها أنني مندوب جمعية خيرية ترغب في توصيل مساعدة مادية لها.

قصدت العنوان الذي أعطتني إياه في منطقه تسمي عزبة خيرالله، وصلت إليها بعد نزولي في محطة مترو دار السلام، صاعدًا سلالم حجرية وصلت بي إلى العزبة، منطقة عشوائية أقل بكثير في كل سماتها من منطقة إمبابة التي كنت أظن أنها أسوأ المناطق الشعبيه في مصر، ولكنني أيقنت الآن أنني في نعمة كبيرة كوني أسكن في منطقة إمبابة.

غرفة صغيرة فوق السطوح الذي يعلو بيتًا من دورين تسكن بها أم عادل وأطفالها، ملحق بها حمام بلدي بسيط، أما المطبخ فهو نفسه الغرفة التي يعيشون بها، والتي ضمت بوتوجازًا صغيرًا وأنبوبته، في حين كانت أدوات المطبخ مرصوصة على رف معلق على جدار الغرفة، كانت رائحة الطعام تفوق بكثير روائح الطبيخ التي تملأ حواري منطقتنا، ناولت أم عادل ورقة بمائتي جنيه كنت قد سحبتها من النقود التي وجدتها في حقيبة ماجد، ألحت أم عادل كثيرًا في سؤالها عن كيفية وصولنا إليها ومعرفتنا كجمعية بحالتها الصعبة، فكان ردي واحدًا (ولاد الحلال).

(٧)

عدت من مهمة تسليم المساعدة إلى أم عادل، وقد صرت إنسانًا آخر مختلفًا تمامًا عما كانت عليه حياتي من قبل، لم أعد (حمصه) الذي قلل زملاؤه في المدرسة من شأنه، صرت إنسانًا ذا قيمة، وأقدم المساعدات إلى المحتاجين، شأني كشأن الشباب ولاد الناس ممن أراهم في إعلانات التليفزيون ويوقرهم المجتمع ويثني عليهم جراء اشتراكهم في القوافل الخيرية.

لكن سرعان ما انتابني الشعور الحقيقي بزيف وكذب ما أشعر به، فلولا وفاة ماجد وحصولي على تركته، ما كنت لأقوم بما قمت به اليوم، بالإضافة إلى عودة شعوري بالندم جراء استيلائي على أموال ماجد وامتناعي عن التبرع بالدم

له إنقاذًا لحياته التي انقضت، وكتب عليّ القدر أن أكملها وأؤدي دور ماجد على مسرح الحياة.

هكذا هو العالم الذي أعيش فيه، يأبى أن يمنحني شعورًا كاملا بالارتياح، فعندما منحني الحياة التي طالما حلمت بها؛ منحني إياها على أنقاض حياة أخرى.

بدت لي روح ماجد ساكنة في غرفتي بجوار أغراضه التي أخبئها بها، فما أن تطأ قدمي للغرفة حتى ينقبض قلبي وينتابني النفور منها، عاد الشعور بالندم يتملكني جراء ما اقترفت من ذنب، بداية من امتناعي عن التبرع بالدم لماجد فكنت سببًا في وفاته، وما يدريني فقد يكون ماجد فاعلا لأعمال خير أخرى منعته عنها بمغادرته لتلك الدنيا، ولكن كيف لي بالتخلص من ذلك الإثم، فقد يطولني العقاب جراء استيلائي على حقيبته وأمواله، ولكن تفكيري هداني إلى أنه يمكنني أن أعيد حقيبته وأمواله إلى أهله، معللا الأمر بأنني احتفظت بها خشية الضياع، وكنت منتويًا إعادتها لهم فيما بعد، فخلصت نفسي سريعًا من تلك المسئولية وذلك الإثم

باتخاذي قرار سريع بالعودة إلى المستشفى في الإسكندرية والبحث عن أي بيانات قد تركها أهل ماجد عند حضورهم لاستلام جثمانه.

*****

تناولت هاتف ماجد وشرعت في النظر في محتوياته، فضولا مني ورغبة في الخوض في حياته وأسراره قبل أن أسلمه لأهله مع باقي متعلقاته، بالإضافة إلى رغبة في البحث عن مهمة جديدة قد أستطيع أن أؤديها عنه قبل تسليم تركته وذلك تطهيرًا لإثمي تجاهه.

صور متعددة يحويها تليفون ماجد له مع فتاة تبدو في نهاية العشرينيات من عمرها أو ربما تعدت الثلاثين بعام أو عامين على الأكثر، جميله خمرية اللون لها شعر أسود ناعم قصير ينسدل حتى نهاية أذنيها، يبدو من ملابسها أنها متحررة شيئًا ما، بخوضي أكثر في الصور اتضح لي أنها متحررة تمامًا، كانت إثارتي تجاهها تزيد كلما توغلت أكثر في الصور، فمن صورها بالجينز الضيق والقميص

الذي يظهر نهديها المكتنزين برغم جسمها المتناسق، إلى صورها بفستان قصير على البحر يظهر أكثر مما يخفي، ثم إلى صور بمايوه فاضح مستلقية في أحضان ماجد على شازلونج ممدد على الشاطئ، بالإضافة إلى صور عديدة أخري أشعلت إثارتي نحوها.

انسحبت إلى غرفتي مرة أخري وعيني تكاد تدب إلى داخل شاشة التليفون علِّي أظفر بتلك الحسناء المثيرة، جلست على السرير تاركًا العنان لخيالي علِّي أقضي تلك الليلة مع عشيقة ماجد في خيالي، إلا أن الانقطاع المفاجئ للكهرباء زلزلني رعبًا وخوفًا حتى رميت الهاتف وانطلقت نحو باب الغرفة، شعرت بقوة غيبية تقاومني في فتح باب الغرفة وتدفع الباب للانغلاق.

لم أقدر على المقاومة ضعفًا ورعبًا، فضربت الباب بقدمي بعنف ممزوج بتوتر بالغ، وعدت للجلوس على السرير مشبكًا يدي خلف رأسي مغمضًا عيني ضاربًا برأسي كله إلى الأسفل محاولا تملك أعصابي ، كتلة من الانقباض دبت على صدري،

تملكني الرعب من مجهول ما غير ملموس، لا أدري أخيالا أم حقيقة تلك الخيالات التي شعرت بها وقد مرت من جانبي ومن خلفي بسرعة البرق وما إن التفتُّ نحوها حتى تتلاشي، ازدادت نبضات قلبي وتسارعت أنفاسي، اختلَّت كل أعضاء جسمي مرتعشة، وفي لحظة فقدت فيها الحركة كما فقدت حتى القدرة على المقاومة في مغادرة الغرفة، تحولت الغرفة إلى قبر وشعرت بتكوم جدرانها عليّ وإن بقت ساكنة مكانها، ولكنها تبعث بشيء غير ملموس أحاط بي من كل جانب، إنها روح ماجد تحاصرني في دائرة مغلقة تقف الحياة خارجها، لم أجد مخرجًا منها سوى غطاء على السرير تكومت تحته ودافنًا رأسي فيه حتى مددت يدي بحذر ساحبًا وسادتي ووضعتها فوق رأسي تحت الغطاء مشيدًا حاجزًا بيني وبين روح ماجد حتى غبت عن الوعي في ثُبات عميق.

obeikan.com

(٨)

لم تغادر تلك الفتاه الحسناء أحلامي طوال الليل، أحلام عديدة مشوشة لم أستوعب منها غير صورة تلك الفتاة المثيرة، والتي سنحت لي الفرصة للمس جسدها لمسات خاطفة أكثر من مرة في أحلامي، فقمت من نومي وأنا أكاد أشعر بحقيقة لمسي لجسدها الذي تكونت لديّ صورة كاملة عنه، فقد كان كف يدي دافئًا جراء لمس جسدها في أحلامي المشوشة.

اختفى شبح ماجد وتلاشى الإحساس بالذنب جراء ما اقترفته تجاهه، فلم يعد يشغلني شيء سوى الوصول لحبيبة ماجد، والتمتع برؤيتها ولمس جسدها في الحقيقة كما شعرت به في أحلامي، والذي صار هدفًا واحدًا لي في الحياة، حتى

obeikan.com

وإن غادرت تلك الحياة بعد دقيقة واحدة من حصولي على متعة لمس جسدها والاستمتاع به.

رجعت إلى هاتف ماجد باحثًا عن تفاصيل أكثر عن فتاته التي صارت حبيبتي وفتاة أحلامي، محادثات عديدة بينهم على برنامج الواتس أب، مواعيد ولقاءات في مطاعم وكافيهات، ترتيب أكثر من مرة لخلوة في شقة ماجد التي يبدو أنه كان يعيش فيها وحيدًا أو كانت تسنح له الفرصة أحيانًا ليكون فيها بمفرده، إذن فالعلاقات الجنسية بين ماجد وهيام لم تكن سطحية أو خارجية كما تصورت، يبدو أنه كان يعاشرها معاشرة الأزواج، اتضح الأمر أكثر بتوغلي في المحادثات، شجار ما دار بينهم أكثر من مرة عن تأفف هيام وضيقها من استخدام ماجد للواقي الذكري في العلاقه معها، أبدت هيام انزعاجها وإحساسها بالمهانة جراء استخدام ماجد للواقي فهي حبيبته وليست فتاة ليل، ولكنه كان يتعمد الهرب دومًا من الإجابة لتساؤلاتها وانزعاجها من أمر الواقي بإجابات مقتضبة معللا الأمر بأنه سيتوقف عنه بعد زواجهم

الرسمي، ذلك الزواج الذي طالبت به هيام أكثر من مرة في محادثاتهما، وكانت إجابة ماجد تدور في إطار واحد هو تأجيل فكرة الزواج لحين استقرار أموره الوظيفية وتعيينه بنقابة الصحفيين حتى يضمن دخلا أساسيًا يتحصل عليه من راتب النقابة فالمكافأة الشهرية التي يتقاضاها من المجله لن تمكنه من تحمل مسئولية الزواج والأولاد، لم يكن الأمر مقنعا بالنسبة لهيام، فقد نشبت بينهما خلافات عديدة بسبب أمر الزواج، بل إنها ابتعدت عنه لفترات طويلة وكانت على وشك إنهاء العلاقة للأبد، لولا ذكاء ماجد معها والذي كان واضحًا من معرفته الجيدة بطرق إرجاعها إليه، فهو يبدو أنه كان يعرف جيدًا مدى حبها له، ومدى أسره لها جراء فض عذريتها، والتي أشارت هيام ذات مرة بعد أن صالحها ماجد، أنها لن تكون إلا له حتى ولو خذلها، ستعيش بدون رجال إن تركها ماجد فهي عزيزة النفس للدرجة التي ستمنعها من إجراء عملية ترقيع غشاء بكارة لتتزوج غيره حتى إن خذلها هو.

لم يحتج الأمر للتخمين أكثر من ذلك، فقد استطعت بسهولة أن أجمع خيوط علاقة ماجد بهيام، فهي بالرغم من حبها لها والذي دفعها لأن تهبه جسدها وشرفها، فإنها لم تكن تمثل له سوى مصدرًا للمتعة المجانية التي يتحصل عليها من ذلك الجسد المثير، الذي لم يمنعنِ توغل ماجد فيه والنهم منه، من ازدياد رغبتي فيه وشوقي إليه، فلم يصبنِ أمر العلاقة الآثمة بين هيام وماجد إلى التذمر منها، بل إنه زادني إثارة نحوها ورغبة في الحصول على ما حصل عليه ماجد.

*****

حسنًا أنك غادرت ذلك العالم يا ماجد، فلم يكن فعلك الآثم مع هيام ولعبك بمشاعرها سوى حلقة في سلسلة من الفحشاء التي سمعتك تتكلم فيها مع صديقك في الحافلة، ولكن هيام هي الضحية الأكبر، فهي لم تكن فتاة ليل ممن سمعتك تتحدث عنهن، هي فتاة عاطفية منحتك جسدها مقابل الحب الذي لم تمنحها إياه، وظل ذلك الواقي الذكري

حاجزًا بينك وبين الحب الصادق.

عذرًا يا ماجد فهيام كانت لك عشيقة ولكنها ستكون لي حبيبة، سأمنحها الحب والزواج الذي تشتهيه، سأطهر هيام من إثمك الذي ارتكبته تجاهها، سأمزق ذلك الواقي الذي كان يشعرها بالمهانة، وأمنحها الحب والأمان الطبيعي، ارقد يا ماجد في قبرك للأبد ساكنًا، فأنا سأقوم بأعظم دور لك على مسرح الحياة، دور لم تكن لتؤديه ولو عشت مائة عام، سأكون حاضرًا عنك في التوقيع على عقد قران هيام.

openkan.com

obeikan.com

(٩)

طرحت التفكير في ماجد جانبًا، وتفرغت لتهيئة نفسي لأحل مكانه في قلب هيام، لم يكن الأمر سهلا بالنسبة لي، فلا مظهري ولا ثقافتي يؤهلاني لخطف قلب تلك الفاتنة المثيرة .أدركت أنه بطبيعة الحال فإنها تعيش تلك الأيام فترة حداد على فراق ماجد، وأنه ليس في صالحي أن أبدأ بالبحث عنها وفرض نفسي عليها وهي ما زالت تبكي ماجد، وربما كانت هي مصيبتها أكبر من أن يتصورها أحد من المحيطين بها أو بماجد، فهي بلا شك تحمل همها الأكبر فيما تركه ماجد من أثر في جسدها، وربما تفكر الآن في حل مصيبتها حتى وإن كانت بترقيع بكارتها وذلك عكس ما أخبرت به ماجد

من قبل.

لم تشغلن كيفية الوصول إلى هيام بعد انقضاء فترة حدادها على ماجد، فهاتف ماجد يحوي معلومات مرضية عن الأماكن التي من الممكن أن أجدها بها، ذلك بالإضافة إلى رقم هاتفها وحساباتها على مواقع التواصل الاجتماعي.

بدأت ولأول مرة في حياتي أن أخطط للقادم منها، فقد حددت أولوياتي التي سأمكث على تنفيذها الأيام القادمة، وأولها تهيئة مظهري لأبدو جذابًا ووسيمًا، لم يكن أمامي سوى ماجد لمحاولة الوصول إلى هيئة تشبه هيئته، فقد وسوست لي نفسي أنه ربما أخطف قلب هيام إن بدت هيئتي أقرب إلى هيئة حبيبها القديم، ولكن حقيقة سعيي للوصول إلى هيئة ماجد تكمن في قلة حيلتي في الوصول إلى مظهر مرضي، فثقافتي في الحصول على ملابسي لا تتعدى سوق غزة والعتبة وسوق الجمعة، فكان لا بد لي من مرشد أستدل منه على الطريق الذي سأسلكه لتغيير مظهري.

حددت نوعية الملابس التي كان يرتديها ماجد من خلال

صوره التي كانت على الهاتف، ثم انطلقت إلى منطقة وسط البلد، وحددت وجهتي على محلات ملابس الشباب التي تحمل أسماء ماركات معروفة، فأنفقت ما يقارب الخمسة آلاف جنيه من أموال ماجد للوصول إلى صورته وهيئته، حتى ساعة اليد الضخمة التي ظهر مرتديًا إياها في أكثر من صورة لم أنس أن أقتني واحدة منها، بالإضافة إلى نظارة قراءة أنيقة كتلك التي كان يرتديها قبل الحادث.

انتابتني سعادة عارمة من تلك الخطوة الكبيرة التي قطعتها في عالم الأناقة، بعد ما عشت عمرًا متدهورًا في أدنى درجاتها، كانت سعادتي أكبر أنني صرت على هيئة ومظهر يليق بأن أكون حبيبًا لهيام، بالإضافة إلى أن قربي من صورة وهيئة ماجد قد يعزز من فرصتي لخطف قلب هيام، إذ صرت صورة من حبيبها المفقود، ضاربًا بذلك عرض الحائط بكرامتي وكبريائي المكمون، واللذين لا قيمة لهما مقابل أن أظفر بلقاء واحد مع هيام أو أحظى بلمسة من جسدها.

obeikan.com

(١٠)

اتخذت قراري بالمضي في الخطوة التالية نحو تغيير حياتي، بأن أحظى بحياة مستقلة في شة جديدة بعيدة عن منطقة إمبابة كي أتخلص نهائيّا من وصمة عربة الحمص التي ألمحها في أعين كل من يعرفني، هداني تفكيري إلى البحث عن شقة بالإيجار في مدينة نصر والاستقرار بها، فطالما راودتني أحلامي بأن أكون يومًا من قاطني ذلك الحي الراقي، ثم أبدأ في البحث عن محل إيجار جديد يصلح لافتتاح مطعم صغير للوجبات السريعة.

حزمت حقيبتي بالملابس الجديدة التي اشتريتها تاركًا خلفي كل ملابسي القديمة حتى الملابس الداخلية القديمة

obeikan.com

المهلهلة التي دأبت عمرًا على ارتدائها، وذلك بعد أن أقنعت أبي أنني حصلت على وظيفة جديدة في مطعم كبير بمدينة نصر، وأن إدارة المطعم منحتني ملابس جديدة كاملة لأكون على مستوى العمل في ذلك المطعم الفخم، بالإضافة إلى سكن للعاملين بالقرب من المطعم سآوي إليه بعد انتهاء ورديتي، كانت سذاجته تبلغ حدًّا كبيرًا يسمح له بتصديق أي شيء أطرحه عليه.

كانت هيئتي الجديده مفاجأة لكل من رآني من أهل الحي وأنا في طريقي للشارع العام، فظلوا جميعًا محدقين نظرهم في ملابسي الجديدة بداية من الحذاء البني العريض والذي منحني طولا أكثر مما أنا عليه بفعل ذلك النعل العريض الذي يحمله، مرورًا بالبنطلون الجينز الذي كان أول بنطلون أرتديه متناسقًا مع ساقي، حتى القميص المشجر الذي كان متناسقًا بشكل بدا مظهري معه وكأني أمارس رياضة كمال الأجسام، في الوقت الذي حمدت فيه ربي أنني لم أنخرط يومًا مع هؤلاء المتطفلين ولم يكن لي يومًا علاقه بأحد

منهم، وإلا كان نصيبي الآن التهكم والسخرية مما آلت إليه أحوالي.

في اللحظة التي وطأت فيها قدمي التاكسي متجهًا إلى مدينة نصر، شعرت بأنني شرعت بالفعل في تقمص شخصية الفقيد ماجد، خاصة عندما استفسر مني سائق التاكسي عن الوجهة التي سيقلّني إليها في مدينة نصر، فأخبرته زهوًا (شارع عباس)، وكأنني أنتمي إلى الطبقة الراقية التي تسكن ذلك الشارع الراقي، وكلما قطع التاكسي طريقه مبتعدًا عن منطقة إمبابة كلما ازدادت روح ماجد في سكونها في جسدي، حتى نزلت من التاكسي متوجهًا صوب كوفي شوب احتل مقاعده شباب وفتيات من مختلفي الأعمار، فطرحت حقيبتي الصغيرة تحت إحدى الطاولات التي جلست على أحد مقاعدها.

بدا الأمر وكأنني انتقلت من بلد إلى أخرى حتى أنني جلست على ذلك الكوفي شوب للاستراحة من عناء السفر وتعب الطريق، بعد أن اشتريت علبة سجائر مستوردة وضعت

علبتها على الطاولة أمامي لزوم الوجاهة.

كان ذلك إحساسًا بأنني انتقلت من عالم إلى عالم آخر مختلف تمامًا، عالم جديد سأبدأ فيه حياتي التي طالما حلمت بها، كانت المرة الأولي التي يوقرني فيها أحد، وذلك حين شرع العاملون في الكوفي شوب في خدمتي مانحين إياي لقب الباشا، فزاد استمتاعي بالمقهى وبالخدمة حتى أنني نسيت أن جلوسي على المقهى لم تكن إلا استراحة من تلك الرحلة الشاقة التي حملتني إلى عالمي الجديد، لم يعكر صفو سعادتي غير تلك الآلام التي ظهرت ما بين فخدي، نتيجة للاحتكاكات التي سببها ذلك البوكسر الجديد الذي لم أعتد على ارتدائه من قبل، فكانت عادتي دومًا في ارتداء الملابس الداخلية الرحراحة التي ورثت عادة ارتدائها عن والدي، ولكنها لم تعد مناسبة لتلك البناطيل المتناسقة التي اشتريتها مؤخرًا، فاضطررت إلى شراء تلك البوكسرات من نفس المحل الذي اشتريت منه البناطيل بعد أن لاحظ البائع حينها أثر السراويل الرحراحة تحت البنطلون الذي

قمت بقياسه فعرض على تلك البوكسرات، التي تغلبت على ما سببته لي من آلام بشراء مرهم مخفف لها من صيدلية قريبة وقمت باستعماله في حمام الكوفي شوب الذي كان أفضل وأرقى من حمام بيتنا في إمبابة، وغير فكرتي عن (المبولة) التي عرفتها في المقاهي من قبل.

*****

استفسرت من أحد العاملين في الكوفي شوب عن شقة صغيرة مفروشة للإيجار، معللا له الأمر بأنني قادم من محافظه أخرى، فتهللت أساريره مرددًا عبارات (إنت تؤمر يا باشا) و (من عينيا) وغيرها من عبارات التفخيم والاستعداد للخدمة، الأمر الذي أسعدني جراء توقيره لي.

اتجهت مع ذلك الشاب الذي يُدعى رمضان، بعد أن طلب مني انتظاره ساعة حتى ينهي ورديته، قضيتها أنا في مطالعة الفتيات الجالسات بالمكان، مزهوًا بنفسي مقدمًا لهن نفسي من خلال تلك النظرات. في حين ذهبت بعد تلك الساعة مع رمضان إلى منطقة الحي العاشر معللا الأمر بوجود شقق

معروضة للإيجار في تلك المنطقة يستأجرها الطلبة، وبعد معاينة أكثر من شقة بصحبة سمسار يعرفه رمضان، استقر بي الأمر في شقة مجهزة تجهيزًا بسيطًا ولكنها أرقى بكثير من شقتي التي غادرتها في مطار إمبابة.

راحة نفسية عميقة استحوذت عليَّ بعد أن أغلقت عليَّ باب الشقة التي استأجرتها، مددت جسدي على أريكة مريحه لم أعهد ملمسها من قبل، ثم بدأت رحلتي الأولي مع علبة السجائر المستوردة، والتي كانت صعبة ولكنها لم تكن شاقة، إذ إنني سبق لي أن اختلست أنفاسًا من قبل مع بعض الزملاء في المدرسة، مما جعل طعم الدخان ليس جديدًا على صدري.

ولكن الأمر الوحيد الذي نغّص عليَّ ليلتي، كان ذلك البوكسر الذي لم يكن باستطاعتي التأقلم عليه بسهولة، وإن كان ملمسه قطنيّا ناعمًا لكنه لم يكن باعثًا للراحة لي بعد أن عشت عمرًا في السراويل الرحراحة.

(١١)

بدأت علاقتي تتوطد برمضان الذي بدا لي شابًا يذكرني بحياتي القديمة، والتي صرت أنتقم منها فيه من خلال صورة السيد والخادم، الخادم الذي أدى هو دوره ببراعة، فكان لا يتورع أن يبدي جل خدماته لسيده الذي يمنحه ورقة بخمسة جنيهات يوميًّا بعد انتهاء جلسته في الكوفي شوب، وخلال أيام قليلة كان رمضان ملبيّا لكل احتياجاتي، وذلك بعد أن تقمصت شخصية الباشا الذي يملك خادمًا ملك يديه، فبدأت أسهر في الكوفي شوب حتى ساعة متأخرة، ثم أصحو وقت الظهر على جرس الباب الذي يطرقه رمضان يوميّا في ذلك الموعد جالبًا معه إفطارًا متنوعًا من الفول والطعمية وأخواتهم، ثم نتناول الإفطار سويًا قبل أن يقوم هو بترتيب محتويات الشقة البسيطة، حاملا بعد ذلك ثمن

الإفطار وما يزيد قليلا له، ذلك غير ما كان يجلبه لي من بعض المحتويات التي تنقص الشقة، وذلك ما كان يمتعني حتى ولو زاد في أسعار ما اشتراه من أغراض، ولكن لم يهمنِ ما يكذب فيه عليَّ في سعر تلك الأغراض، فالأهم هو إحساسي بأنني آمر فأُطاع.

صارحته يومًا برغبتي في افتتاح مطعم صغير للمأكولات السريعة، كان لديه حل لكل رغباتي، فأخبرني بأنه سيحمل لي مفاجأة عند حلول المساء بعد انتهاء ورديته، قضيت أغلب النهار في الكوفي شوب، حتى أتاني رمضان بالخبر اليقين، كانت حقّا مفاجأة سهلت عليَّ تعب البحث عن مطعم وتجهيزه، فاجأني رمضان بأن إدارة الكوفي شوب ترغب في تأجير ركن للمأكولات السريعة، وأن الأمر لن يكلفني أكثر من مبلغ تأمين ومصاريف المعدات، إذ إن ركن المأكولات مجهز، حيث كان سيستأجره شخص ما ولكن حسب ما صرّح لي (محصلش نصيب).

اصطحبني رمضان لمكتب مدير الكوفي شوب بعد أن

أخبرني أنه رتب الأمر معه، ولا ينقصنا غير الاتفاق والتجهيز، استقبلني الرجل بترحاب شديد بعد أن استنتجت أن رمضان أخبره أنني قريب له، لم يستغرق النقاش كثيرًا، وتم الاتفاق على كل شيء، حيث كانت الأمور بسيطة وغير مكلفة بالشكل الذي كان سيتكلفه افتتاح مطعم من بابه، ولكن انتابني القلق من سهولة الاتفاق وموافقة الرجل بمرونة على استئجاري للمكان، فاستفسرت منه عن السبب وراء أن ركن المأكولات مجهز بالفعل ولم يتقدم أحد لاستئجاره، فأخبرني الرجل بحزن أنه كان هناك اتفاق بينه وبين شخص ما على استئجار ذلك الركن منذ فترة طويلة، وأن إدارة الكوفي شوب جهزته ولكن ذلك الشخص تُوفي منذ أيام قليلة، فأمن رمضان على كلام الرجل قائلا :

- الله يرحمك يا أستاذ ماجد

*****

كدت أن أفقد وعيي منذ اللحظة الأولى التي عرفت فيها أن ذلك المكان قد تم تجهيزه لماجد حتى أتبوأ مقعده فيه،

خارت قواي حتى أن رمضان استفسر أكثر من مرة عن سبب ما أصابني من تغيير منذ معرفتي بأمر الفقيد، نهرته بسبب كثرة سؤاله، حتى أنه خمن الأمر على أنه قد أصابني التشاؤم من مسألة وفاة ماجد الذي قد تم تجهيز المكان من أجله.

عادت روح ماجد تطاردني في منامي، مجموعة من الكوابيس المختلطة وغير المكتملة هاجمتني تلك الليلة، مرة بعودة ماجد للحياة وطردي من الكوفي شوب، ومرة بأن رمضان ليس إلا هو ماجد نفسه متخفيًا في شكل رمضان حتى ينتقم مني، حتى أنني شعرت بماجد يجري في الغرفه حولي بينما كنت مختبأً تحت وسادتي خوفًا ورعبًا من تلك الكوابيس.

(١٢)

لم يكن أمامي خيار آخر، لا مفر أمامي من استكمال الطريق الذي رسمه لي القدر، طريق ماجد وحياته، شاءت روح ماجد أو أبت فإنني سأخطو كل خطواته في الحياة، لن ترهبني تلك الكوابيس التي تهاجمني، لن أدع تلك الفرصة تفوتني، وقد بات واضحًا ملء العين أنني سأكمل طريق ماجد في تلك الحياة.

تملكني الإحساس بأن هيام باتت قريبة مني، وأني سأنالها في القريب العاجل، فلا يستطيع أحد أن ينكر أنني وريث ماجد في كل شيء حتى التي كانت حبيبته ستصير حبيبتي، طبقًا لكل المعطيات التي ظهرت، فمن الذي أرسلني لذلك

الكوفي شوب دون أن أبذل مشقة البحث عنه، ومن الذي وضع رمضان في طريقي ليكون سببًا في أن أرث مشروع ماجد الذي حال الموت بينه وبين إتمامه، فالذي قدر كل تلك الأحداث سيقدر لي بالطبع الحصول على قلب هيام.

*****

لم يستغرق الأمر سوى أيام معدودات حتى كان ركن المأكولات جاهز للعمل بعد توقيع العقد مع إدارة الكوفي شوب، وقد كان لرمضان الفضل الكبير في تجهيز ما كان ينقصنا من معدات وأرخص الأسعار، وذلك بعد أن سمح له مدير الكوفي شوب بالانتقال للعمل معي، فصار قريبًا مني للدرجة التي صار معها أول صديق يخترق حياتي، ولكنها كانت صداقة مزيفة، فإن كان رمضان صديقًا لي بشخصيته الحقيقية كعامل لدي يظهر إخلاصه لي وتفانيه في العمل الذي أملكه، فأنا كنت صديقا بصورة خادعة جراء ما رسمته عليه من كوني شريف من نسل شرفاء، جاء من بلدته إلى القاهرة ليستثمر أمواله التي أقنعته أنها أكثر بكثير مما

وضعته كحدٍّ للإنفاق على ذلك المشروع.

لم يفوت رمضان فرصة إلا واستفسر مني عن سبب الصدمة التي انتابتني جراء معرفتي بأن ذلك المشروع كان لماجد، فلم أجد كذبة أفضل من أنني كنت على معرفة بماجد وأنه كان صديقًا لي.

obeikan.com

obeikan.com

(١٣)

فجأة وبسرعة لم أكن أتوقعها، تغيرت حياتي تمامًا إذ ملأها الانشغال والصخب الذي صارت عليه حياتي من الأيام الأولي لافتتاح مشروعي الجديد، والذي كان مبشرا بدخل مثمر سأتحصل عليه من خلاله، وهو الأمر الذي أصابني بارتياح كبير، إذ أن الأمر يبدو وكأنني أنهيت مهمتي بنجاح، ولم أعد في حاجة لفعل شئ جديد لتغيير حياتي، إذ أن حياتي قد تغيرت بالفعل، فها أنا الآن أجلس طوال اليوم على طاولتي في الكوفي شوب متابعا فقط لحركة المشروع ودخله الذي فاق كل توقعاتي، ولم يكن يعكر صفو جلستي سوى ذلك البوكسر اللعين الذي ظلت أفخادي مستسلمة لما يسببه لها

obeikan.com

من التهابات خانقة، لم يكن يخفف من أثرها سوى استخدام الكريمات المرطبة التي صرت مدمنًا على استخدامها، حتى أن طبيب الصيدلية كان يناولها لي فور دخولي الصيدلية دون أن يكلفني عناء طلبها أو الاستفسار عنها.

وفي ظل ذلك الارتياح والاطمئنان للحياة، التي لم يكن ينقصها سوى ظهور هيام، وهو الأمر المنتظر تحقيقه بعد أن تتخلص من صدمة فقدانها لماجد، وبعد أن تخلصت تمامًا من آلام الحياة والخوف من المستقبل، إذ هاجمني حلمًا مزعجًا قامت ببطولته أم عادل وأولادها، إذ تصدروا صورًا مشوشة وأحداثًا غير متناسقة، ما بين هروبهم من شخص ما يطاردهم، وما بين توسلهم لشخص آخر يدفعهم خارج مكان ما، أو تلك الصورة التي تصدرت معظم أحداث الحلم والتي أظهرت بكائهم وصراخهم، حتى ظهر ماجد في نهاية الحلم وقد بدا محتضنًا لعادل وأخواته، حيث انتابتهم السعادة والراحة فور ظهوره.

كانت صدمة ظهور ماجد في الحلم قوية إلى الحد الذي

أيقظني مذعورًا وربما هاربًا من لقائه، فلم أعد أتحمل رؤية ماجد في أحلامي، لدي رغبة عارمة في نسيان ماجد وحياته التي ورثتها، فمن حقي أن أنعم بتلك الحياة التي لم أكن أتصورها، دون أن تنغصها عليَّ روح يقبع صاحبها بجسده تحت التراب.

لما يكن لديّ حل قبل نهاية اليوم سوى زيارة أم عادل ومنحها مساعدة مالية، حتى أرتاح من عناء رؤية صورة ماجد في نومي الليلة، قصدت بيت أم عادل بنفسية مختلفة تمامًا عن تلك التي كنت عليها عندما زرتها المرة السابقة، والتي كان غرضي فيها إنسانيا بحتا، بهدف مساعدتها وعدم قطع عادة المرحوم ماجد في تقديم المساعدة لها ولأولادها، أما تلك المرة فإنني أساعدها بغية إبعاد روح ماجد عن حياتي والتخلص من أي إثم قد يدفعها للتربص بي في أحلامي، أو الانتقام مني فيسلب مني الحياة التي حصلت عليها.

دخلت بيت ذلك المنزل الذي تسكن أم عادل في سطحه البسيط، وقد أصابني التأفف من رائحة الطبيخ المكمكمة

التي تغمر سلالمه الضيقة الخانقة، فلم أعد أتحمل تلك الروائح التي تربيت عليها في مطار إمبابة، ولم يعد صدري يتحمل ذلك الجو الخانق الذي يغمر تلك السلالم المقبضة للصدر، فتغيرت ملامح وجهي إلى الضيق والزجر، في حين اتخذ فمي وضع التأفف واتخذت أنفي وضع التقرف، حتى أصابتني المفاجأة التي أنستني تلك الرائحة وذلك الجو الخانق، أم عادل لم تعد موجودة ببيتها، صدمتها سيارة منذ عدة أيام وحضر أقاربها من بلدتهم فاستلموا الجثمان واصطحبوا عادل وأخواته بعد أن لم يعد لديهم أحد يتولاهم هنا، حاولت الاستفسار من جارة أم عادل التي أبلغتني بتلك المأساة، عن تلك البلدة التي سافر إليها عادل وأخوته، فلم أجد إجابة لديها أو لدى أي شخص في ذلك المنزل.

(١٤)

حالة من الاضطراب العام انتابتني منذ اللحظة الأولي التي استقبلت فيها خبر مصرع أم عادل وما ترتب عليه بعد أن ضللت طريق عادل وإخوته، خوفًا من مجهول آخر يتربص بي ليسلب مني حياة ماجد، تلك الحياة التي كنت قد اطمأننت لها ولم يكن ينقصني سوى النيل من هيام، ترى ماذا سيكون رد فعل القدر الذي غيَّر حياتي، بعد أن فشلت في أن أؤدي الدور الخيري الذي كان يسلكه ماجد في الحياة، ربما تكون تلك بداية النهاية، أو ربما الجزء الثاني للرواية التي رسمها القدر بدقة حتى منحني حياة ماجد وإرثه في جزئها الأول، لتعود بي في جزئها الثاني إلى حياة حمصة البائس، بعد

obeikan.com

حلم قصير المدى لم يكتمل حتى برؤيتي لهيام، التي هي الجزء الأثمن والأهم في ذلك الحلم الذي يبدو أنه أوشك على النهاية.

الغريب في الأمر أن روح ماجد لم تطاردنِ بعد انتهاء الدور الخيري لي بمصرع أم عادل، وهو ما زادني قلقًا وانتظارًا لحقيقة انتهاء الحلم، هي إذن لعبة قدر وأرواح تهب لمن يستحق وتنزع ممن لا يبالي بحقيقة ومغزى دوره فيما ناله.

بعد يومين من القلق والاضطراب غاب عني فيهما النوم إلا من غفوات خاطفة، وفي الوقت الذي كنت أنتظر فيه أي حدث مفاجئ قد ينهي ذلك الحلم الذي كان جميلاً، اتخذت مرغمًا أولى الخطوات التي قد تعيدني لحياة حمصة، بعد أن أجبرتني آلامي على التخلي عن تلك البوكسرات اللعينة التي لم تعد أفخادي تتحملها، عدت إلى الرحرحة بعد أن اشتريت عددًا من السراويل الفضفاضة.

إحساس كبير بالراحة تملكني منذ العودة إلى تلك السراويل، لم تكن مجرد راحة مادية ملموسة، كان شعور بزوال اختناق

كاد أن يفتك بي، ألاعيب قدرية متناقضة بشكل كبير فكيف سأشعر بالراحة إذا رجعت إلى حياتي القديمة التي طالما سئِمت منها ومن تفاصيلها، لكنني لا أكذّب شعورًا داخليّا لديّ بأنني لم أعرف ذلك التوتر والخوف طيلة حياتي القديمة، كان فقط شعورًا بالسخط عليها، لكنه لم يكن هناك شيء يقلقني أو يرهبني، كخوفي من روح ماجد التي توقفت عن مطاردتي أو خوفي من انكشاف أمر استيلائي على أموال ماجد، أو ذلك الخوف الراهن من أن يسلب مني القدر كل شيء.

*****

بعد ليلة لم أذق فيها طعم النوم، خوفًا من اللحظة التي سيتغير معها كل شيء، توجهت صباحًا صوب الكوفي شوب، متوقعًا حدوث أمر جلل اليوم قد ينهي ذلك الحلم السعيد، كان لديّ شعور أنني سأواجه مشكلة ما مع الحكومة بسبب ركن المأكولات الذي لم نتخذ أي خطوة لترخيصه، بمرور الساعات زاد اضطرابي وانهارت أعصابي منتظرًا انفجار

المشكلة في أي لحظة، حتى انفتح باب الكوفي شوب فجأه لتأتي اللحظة التي طالما انتظرتها، لحظة دخول الحلم الذي طالما انتظرته، اليوم جاءت هيام.

obeikan.com

(١٥)

سحابة حزن كبيرة غطت المكان منذ اللحظة الأولي التي وطـأت فيها هيام الكوفي شوب، إذ عكس الشجن الذي يملأها ظلاله على المكان، في الوقت نفسه الذي توجه فيه أغلب رواد الكوفي شوب والعاملون به إلى مصافحتها وتقديم واجب العزاء لها في وفاة ماجد، تغير فجأه الجو النفسي لأغلب الموجودين بالمكان، فعمّ الهدوء الجميع مشاركة منهم لهيام في أحزانها، فبدا على الجميع التعاطف من خلال نظرات المواساة التي وجهها أغلب الحاضرين صوب هيام التي جلست مع ثلاث من صديقاتها بدأ عليهن تحملهن لعبء مهمة ثقيلة تتمثل في مؤازرتها ومحاولة إخراجها من

أحزانها على فقدان حبيبها، الذي أقر جميع الحاضرين من خلال تصرفاتهم معها أن ما كان بينها وبين فقيدها، أكثر بكثير من مجرد قصة حب، حتى أن ما بدت عليه هيام من مظاهر الأسى، يثبت أنها في حالة انكسار كبير.

لم يكن باستطاعتي النظر طويلا إلى تلك الحسناء، التي شغفتني حبّا فقط من صورها، أما المرة الأولي التي تظهر فيها أمامي بصورتها كاملة وأكون فيها على بعد خطوات منها فقد انتابني فيها الارتباك والتوتر، فاكتفيت فقط بخطف نظرات سريعة بدت طبيعية وسط اهتمام الجميع بتواجدها، حتى انصرفت بعد وقت قصير مع صديقاتها بعد أن بدا أنها طلبت منهن الانصراف، غير أن نظراتي التي تسمرت عليها أثناء خروجها، دفعها إلى إلقاء نظرة سريعة عليّ، بدا منها إدراكها لاهتمامي بالنظر إليها، فكاد قلبي أن يسقط أرضًا في اللحظة التي التقت فيها عيناي بعيني هيام.

*****

مجموعة من الأحلام المشوشة عادت تطاردني في تلك

الليلة، صور لهيام متقاطعة مع صور لعادل وإخوته بالإضافة إلى صور ماجد التي تصدرت تلك المشاهد المتضاربة، فعدت من تلك الأحلام المشوشة خالي الوفاض من أي جملة مفيدة قد تساعدني في حل تلك الرسائل الذي أصبح لديّ يقين من كونها رسائل من روح ماجد، غير أن قلقي من أي مجهول تحمله تلك الرسائل قد يضيّع مني هيام، دفعني لأن أفكر كثيرًا لربط تلك المشاهد المتقاطعة بأحداثها المشوشة، حاولت الوصول إلى أي نتيجة مرضية لقلقي وتوتري، فارتضيت حلا يطمئن قلبي بعدم وجود مانع قد يحول بيني وبين الوصول لقلب هيام، لا بد من إكمال رسالة ماجد مع عادل وإخوته لضمان امتلاك إرث ماجد كاملا بما فيه قلب هيام.

اطمأن قلبي بأن مشقة البحث عن عادل وإخوته أهون كثيرًا من ويلات مجرد التفكير والقلق من عدم الحصول على قلب هيام.

عدت مرة أخرى لارتداء تلك البوكسرات الضيقة اللعينة،

خوفًا من تأثر مظهري بارتداء السراويل الرحراحة التي تبدو ظاهرة تحت بناطيلي، في الوقت الذي بدأت فيه محاولاتي للبحث عن مكان عادل وأخواته وما آوى إليه مصيرهم، استعنت على ذلك بالسؤال عند جيرانهم والإصرار على إمدادي بأي معلومات قد توصلني إليهم، وانصرفت على وعد من بعضهم بالاتصال بي عند التوصل إلى أي معلومة عنهم، بعد أن تركت رقم تليفون لديهم.

obeikan.com

حتي وإن راودني الأمل في البقاء إلى الشتاء القادم،
فكيف لي أن أضمن عبور ذلك العالم المتهالك من
عواصف الخريف لينتظرني.

obeikan.com

obeikan.com

(١٦)

منذ أن وطـأت قدمي أرض مدينة نصر، وكـان لا بد لي أن أعثر يوميّا على ذلك الرجل المسن دافعًا أمامه عربة البطاطا التي يتحصل منها على رزقه، كثيرًا ما رق قلبي لحاله وشعرت بالتعاطف تجاهه، وجدت فيه ما لم أجده في أبي الذي هجرته منذ ما يقرب من أسبوعين، أبي الذي طالما سخطت على وهنه وعلي ما سببه لي من خزي وعار من عربة الحمص تلك التي طالما كرهتها وكرهت وقوف أبي عليها.

تمنيت لو أنني ساعدت هذا المسن الضعيف، فأرحمه من ذلك العمل الشاق، شعورٌ غريبٌ بالتعاطف تجاهه أيقظ في

نفسي ما مات فيها عمرًا، ولم تعرف سوى مشاعر الجفاء والسخط تجاه أبي، فأنا لم أشعر طيلة ما مضى من حياتي مع أبي بأي تعاطف أو شفقه تجاه مشقة عمله على عربة الحمص أو محل العطارة.

واظبت على مساعدة بائع البطاطا المسن بصفة يومية، فكنت أتحجج بطلب البطاطا منه حتى أترك له مبلغًا يزيد عن ثمنها، من باب إرضاء نفسي المتعطشة إلى مساعدته بأي شكل كان، حتى وصل بي الحال إلى أن شعورًا بالذنب كان يتملكني أن يومًا منعني مانع من الوصول إليه وتقديم المساعدة اليوميه له، وفي يوم غاب فيه بائع البطاطا، تذكرت أن لي أبًا يفتقد إلى عطفي الذي غمرت به المسن الغريب، أبًا لم أشعر به طوال سنوات عديدة قضيتها في كنفه، عشت غريبًا عنه وعن بيته الذي احتضنني ورباني فيه حتى صرت رجلا، فكان جزاؤه ذلك الجحود الذي لازم علاقتي به فيما مضى من عمري، وانتهى إلى قراري بالابتعاد عنه في الوقت الذي كان لزامًا عليّ أن أكون فيه

بجواره، فأرفع عنه عناء السنين الذي لم يشتكِ منه يومًا، وكأنه كان يعلم بما تخبئه نفسي من السخط على عمله وعلى حاله، فارتضى جفائي تجاهه كما ارتضى هوانه على الناس رغبة في العيش بسلام.

*****

بعد أن غمرتني الشفقه تجاه أبي، وانتابني الشعور بالذنب تجاه ما اقترفته تجاهه، بعد أن تخليت عنه في الوقت الذي ورثت فيه ماجد ونقوده، اختليت بنفسي موجهًا اللوم لها على ما نزغتني به من ذلك الجحود، وعدم التفكير في رفع العناء عن أبي خاصة بعد أن منّ اللّه عليَّ بنجاح مشروعي الجديد، فانتهى الأمر إلى عقد النية على رفع الظلم عن ذلك الأب الكهل في أقرب وقت ممكن وإراحته من عناء السنين.

obeikan.com

(١٧)

خرجت إلى الشارع اليوم قاصدًا هدفًا محددًا؛ رفع العبء عن كاهل أبي، مستثمرًا بذلك تلك المشاعر التي انتابتني بالأمس، بعد أن لمست ما افتقدته لسنوات طويلة، ألا وهو الإحساس بأبي وما عاناه من أجلي طوال ما مضى من عمري.

اتجهت أولاً صوب الكوفي شوب، لتناول إفطار خفيف واحتساء كوب صغير من القهوة، كما صارت عادتي في الأيام الأخيرة، في ظل التغييرات التي طرأت على شخصيتي، بعد أن تمكنت تمامًا من تقمص شخصية الشاب صاحب العمل، الذي ليس له دور في الحياة سوى متابعة أعماله أثناء تناوله للقهوة، التي لم يعرف بيتنا رائحتها يومًا، فلم يدخله إلا الشاي والحلبة

والينسون، تلك المشروبات التي كان يحرص أبي دومًا على تناولها ولم أشاركه فيها يومًا، مدخرًا عشقي كله للقهوة التي أدمنت احتساءها منذ ذلك التحول الذي طرأ على حياتي، فكنت أستمتع جيدًا باحتسائها مع السيجارة، أثناء مراجعتي لشؤون العمل مع رمضان، الذي كان يؤدي دوره في تفخيمي ورفع قدري ببراعة شديدة، مما يمنحني إحساسًا بالنشوة فأتراجع بكرسي إلى الخلف وأرفع أحد قدمي على الأخري، وأسحب نفسًا طويلاً من سيجارتي، ثم أنفخ دخانها الكثيف في وجه رمضان الذي كان يبدو مسرورًا، وهو حانيًّا ظهره على المنضدة ليتمكن من الحديث معي.

فاجأني رمضان بنفس إنحنائته تلك على المنضدة، عند دخولي للكوفي شوب، لكنه كان منحنيا تلك المرة صوب هيام التي كانت جالسة مقابلة وعلي وجهها ابتسامة حزينة ولكنها كانت جميلة.

يبدو أنهما كانا يتبادلان أطراف حديث سريع، انتهى عندما التفت رمضان إلى وصولي، فوجه بصره نحوي بعد أن أشار

لهيام بوصولي، ففاجأتني هي الأخرى بالنظر نحوي مبتسمة ابتسامة انخلع معها قلبي، فاتجهت مباشرة صوب رمضان الذي اعتدل واقفًا للسلام علي، ثم قدمني إلى هيام قائلا:

-هو ده أستاذ كريم

خيرًا فعل رمضان عندما اختصر لي المسافات التي كنت أعمل لها ألف حساب للوصول إلى هيام، تركني معها وانصرف بعد أن أسدى لي جميلا لن أنساه له مهما طال الدهر، قدمني لها قبل أن تراني، فجعل أمر الجلوس إلى جوارها والحديث معها أمرًا يسيرًا، عرفت منها بعد أن جلست إلى جوارها بصحبة صديقة لها تدعى بسمة، أن رمضان أخبرها بأنني كنت صديقًا للمرحوم ماجد، وأن القدر شاء أن أكمل مهمته في ذلك المشروع الذي كان ينتوي الإقدام عليه قبل وفاته.

تجاوزت بإجابات مقتضبة استفساراتها المتعددة عن أسباب عدم رؤيتها لي من قبل مع ماجد، وعن صدفة إقدامي على مشروعه بعد وفاته دون علمي بأنه كان لماجد، تعللت لها

بأنني لست مداومًا على الإقامة بالقاهرة.

غير أن أكثر ما فاجأني وأسعدني في نفس الوقت، هي تلك الراحة التي بدت على هيام في حديثها معي، فبددت ذلك الانزعاج الذي كان قد انتابني في بداية جلوسي معها، وخوفي من عدم تقبلها للحديث معي، فما حدث كان على النقيض تمامًا مما توقعت، حيث بدا الأمر وكأننا على معرفة قديمة، فتبادلنا الحديث في وجود صديقتها بسمة في مواضيع مختلفة لم تخل من الإشارة إلى ماجد من قريب أو بعيد، غير أن اللافت للنظر أن هيام قد بدت وكأنها تخرج لتوها من تلك الكآبة والحزن الذي كانت عليه، وكأن معرفتها بي اليوم فتحت لها بابًا جديدًا للخروج للحياة، بعد أن كادت أن تلفظها بعد رحيل ماجد.

*****

الحقيقة أنني أنا الذي انفتح لي بابًا جديدًا في الحياة؛ حياة تلونها هيام وترسم بهجتها، حتى وإن كانت لا تعلم بما أكنه لها من حب جارف، فيكفيني مجرد ارتياحها لوجودي في

حياتها كصديق، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا، ويتحقق مرادي في الحصول على هيام كحبيبة وزوجة.

انشغلت بهيام منتظرًا لقائي معها في اليوم التالي، حتى نسيت موعد أبـي، فطرحت مشاعري تجاه أبـي جانبًا، واتخذت قرارًا لم أشاور نفسي فيه، قرارًا بتأجيل كل شيء والتفرغ فقط لهيام.

obeikan.com

obeikan.com

(١٨)

اكتملت أركان القصة، وصارت حياة ماجد من نصيبي كاملة، خاصة بعد أن فتح لي القدر بابًا للوصول إلى هيام، فلم يعد ينقصني شيء مما تمنيته، خاصة بعد رواج مشروعي الجديد، بفضل الله ثم اجتهاد رمضان الذي كان يبذل كل ما بوسعه لإنجاح المشروع الذي صار يدر عليَّ دخلا لم أكن أحلم به يومًا.

ولكن خوفي من انهيار الحلم الجميل الذي أعيشه، ورغبة في إكمال دور ماجد كاملاً في الحياة، دفعني إلى السعي إلى القيام بدور ماجد في أفعال الخير، بعد أن حددت الأمر بأن أقوم بتأدية أدوار ماجد كاملة، هو شرط فرضه القدر عليّ

obeikan.com

لاستمرار ذلك الحلم.

وبعد زيارات متعددة لجيران أم عادل، تمكنت أخيرًا من الحصول على عنوان أهلها، حيث يمكث عادل وأخواته هناك، في قرية من قري محافظة سوهاج، فوضعت مهمة الذهاب إليهم على قائمة أولوياتي، التي أجلتها كاملة بما فيها زيارة أبي، لحين التمكن من هيام.

*****

لم أجد سببا صريحًا لارتياح هيام لي، واندماجها في تطور علاقة الصداقة بيننا، غير أن القدر رسم ذلك الوضع حتى ارتضته هيام بدون سعي منها أو قصد، ففكرت أكثر من مرة بمصارحتها بحبي لها، غير أن خجلي منعني من ذلك، بالإضافة إلى أن علاقة الصداقة الوطيدة التي صارت بيننا، لم يتعد عمرها أسبوعين فخشيت أن تلقى مصارحتي لها استيائها فأخسرها للأبد، فحرصت فقط على توطيد علاقتنا والسعي إلى العمل على تعلقها بي، فكنت حريصًا دومًا على إظهار اهتمامي بها واحتوائي لها، مرة بإهدائها

هدية تعبر لها عن اهتمامي بها، ومرة بالسؤال الدائم عنها ومحاولة تخفيف آلامها بفقدان ماجد، حتى صارت الاتصالات الليلية عادة اعتدنا عليها، حتى صارت لي كتابًا مفتوحًا، بعد أن فتحت قلبها لي وحكت لي عن كل تفاصيل حياتها، فهي إنسانة رومانسية حنونة، تصبو دومًا إلى الحنان مِمَّن حولها، في ظل ظروف وحدتها التي فرضتها عليها الأيام بعد أن فقدت والديها وهي في سن صغيرة، وهي تعيش من يومها مع جدتها العجوز.

obeikan.com

obeikan.com

(١٩)

فاجأتني هيام ذات صباح برغبتها في اصطحابي معها لزيارة والدة ماجد التي تعيش أسوأ ظروفها منذ فقدانها لابنها الوحيد، وهو الأمر الذي صدمني أيضا كوني لم أكن على علم بأن ماجد كان وحيد والدته، وكيف لي بأن أواجه تلك السيدة الثكلى بعد أن كنت سببًا صريحًا لفقدانها لابنها الوحيد، وإن كانت لا تعلم بتسببي في ذلك، غير أن إحساسي بالذنب دفعني إلى التخوف من تلك المواجهة، إلا أن تمسكي باستمرار علاقتي بهيام وتطورها، دفعني إلى الموافقة على مصاحبتها في تلك المهمة الصعبة.

شعورٌ بسعادة كبيرة غمرتني، طوال الطريق الذي جمعني

بهيام ذهابًا إلى والدة ماجد، كان الحلم الأروع الذي عشته منذ رسم لي القدر طريقي الجديد، كنت أشبه بالطفل الذي انطلق إلى الشارع صبيحة يوم العيد، تمنيت لو لم ينته الطريق، أو أن نغير طريقنا نحو مكان يجمعنا وحدنا، في زمن لا ينتهي.

لم يوقظنِ من ذلك الحلم الجميل، سوى صدمة رؤيتي لوالدة ماجد لأول مرة، حين اهتز جسدي وتوترت أعصابي، وكأنني أمام قاض سيفتح تحقيقه معي في أسباب تخليني عن ماجد في لحظات احتضاره.

كان البيت بسيطًا وإن غلب عليه رقي أصحابه، وذلك عكس ما كنت أتصوره عن ماجد وعائلته من ترف العيش، ذلك بالإضافة لما غلب على المكان من روح الكآبة، التي لم يهدأ من وطأها سوى صوت إذاعة القرآن الكريم المنبعث من المذياع، والذي يبدو أن السيدة العجوز اعتادت على تشغيله ليخفف عنها آلام الوحدة، في ظل تلك الإضاءة الخفيفة الباهتة التي غطت المكان، الذي غلب على أثاثه طابع زمن

الثمانينات من طاقم أرابيسك خشبي ومكتبة بأرفف خشبية شطرت الصالة إلى نصفين.

تلك الحياة البسيطة دفعتني إلى السفر بتفكيري بعيدًا عن الحوار الذي غلب عليه كلمات المواساة المتبادلة بين هيام ووالدة ماجد، محاولا إيجاد إجابة لكل ما يدور في ذهني من أسئلة حول ما فوجئت به من تلك الحياة البسيطة لعائلة ماجد والتي تتناقض مع ما عرفته عنه من تلك السيولة المالية التي طرحت عليَّ منها ما طرحته من نصيبي.

خطفتني السيدة العجوز بوهنها ومرضها الواضح، فوجدت نفسي أقترب منها محاولا التخفيف عنها بما لاح لي من كلمات ترضي مصابها الأليم، حتى اقترحت هيام أن ننصرف حتى ترتاح، وذلك بعد أن ناولتها هيام مجموعة أدوية أخرجتها من حقيبتها، فحدست الأمر أن تلك الأدوية هي السبب الرئيسي للزيارة، بعد أن أمطرتها السيدة العجوز بوابل من كلمات الشكر والإطراء، تأكدت معها أن هيام أهدت تلك الأدوية لها، وأن حالتها المادية لم تكن تسمح بتوفيرها.

بعد أن تهيأنا للانصراف وأثناء سلامنا على والدة ماجد، إذ طرحت والدة ماجد على هيام سؤالا زلزلني باستفسارها عن أي أخبار جديدة تخص النقود التي اختفت مع ماجد، تسارعت أنفاسي بل كادت أن تتوقف، قبل أن تجيب هيام عليها بعدم الوصول إلى شئ بخصوص تلك النقود، فلم تنس السيدة العجوز أن تطرح جملتها الأخيرة قبل رحيلنا والتي هزت كياني، إذ قالت:

ـــــ وذنبهم إيه البنات الغلابة اللي كانوا هياخدوا الفلوس.

*****

انكشفت لي حقيقة الأمر في حياتي، بعد أن علمت من هيام في طريق عودتنا حقيقة أموال ماجد التي أقنعني شيطاني يومًا بالاستيلاء عليها، لم تكن أمواله، بل كانت تبرعات قد جمعها المرحوم ماجد ووكل بها لتسليمها لإحدي الجمعيات المسؤولة عن تجهيز اليتيمات للزواج.

openkan.com

(٢٠)

انكشفت لي حقيقة ماجد كاملة، فهذا الخمورجي الزاني كان قد وهب حياته لفعل الخير، كان وسيط الخير بين المتبرعين والمحتاجين، لم تكن أم عادل وأبنائها هم فقط من تبناهم ماجد بتلبية احتياجاتهم، فقد كان يبحث باستمرار عن الفقراء والمساكين ثم ينشر في محيط أصدقائه ومعارفه عن احتياجاتهم ثم يجمع ما يستطيع جمعه لمساعدتهم، هذا ما صدمتني به هيام، في الوقت نفسه الذي أبدت فيه استغرابها من مسألة عدم علمي بذلك الأمر رغم كوني أحد أصدقائه، فعللت الأمر بكوني دائم السفر إلى بلدتنا ولم أكن ألتقي ماجد كثيرًا.

obeikan.com

احتد بداخلي الصراع، باحثًا عن أي مخرج ينقذني من ذلك المأزق الذي سأخسر فيه دنياي وآخرتي، فكيف لي أن أكمل مشروعي الذي صرت أتربح منه على المال الوفير، بعد علمي بأنني قمت ببنائه على أنقاض أحلام اليتيمات، وكيف لي بأن أنجو في الآخرة من عذاب النار التي توعد بها الله أكلي أموال اليتامي.

تمنيت أن لو كان كل ذلك حلمٌ أو كابوسٌ مزعج، أصحوا منه على حياتي القديمة البائسة، تلك الحياة التي كانت لا تحمل همّا ولا وزرًا؛ أشتاق لضعف أبي وقلة حيلته، اشتاق لعربة الحمص حتى لو لازمني لقب حمصه طيلة حياتي، كم أتمني الآن أن أعود لبيتي القديم وغرفتي الكئيبة المتهالكة، وأن أقف بجوار أبي في محل العطارة وأن أدفع عنه عربة الحمص تلك التي حنت ظهره وقصمت حياته.

يبدو أنني في طريقي للتخلي عن كل شيء، لاح لي من بعيد أن الستار سينسدل قريبًا، سينتهي ذلك الحلم الجميل، لأعود إلى حياتي القديمة بكل ما تحمله من مآسي وآلام.

تتربص بنا الحقائق لتصدمنا في الوقت الذي تكون
قلوبنا فيه قد اطمأنت إلى الزيف.

obeikan.com

obeikan.com

(٢١)

أول ما فعلته صبيحة اليوم التالي، كان زيارة والدة ماجد وحدي، قاصدًا الحنو عليها وتلبية احتياجاتها، في خطوة هي الأولي نحو تعديل مسار ذلك الطريق الخاطئ الذي رميت نفسي فيه، في خطوة من سلسلة خطوات انتويت القيام بها لأتخلص من إثمي، حتى أجد حلا لإنهاء مشروعي الجديد وتسليم الأموال لمستحقيها من اليتيمات.

قضيت أكثر من ساعتين في منزل والدة ماجد، تناولت معها إفطارًا كنت قد جلبته معي، ورتبت لها منزلها، ولم أنس أن أزودها ببعض احتياجات المنزل من أطعمه وعصائر قبل أن أنصرف، تاركًا خلفي تلك السيدة العجوز التي رق لها قلبي

كثيرًا، على وعد مني بتكرار الزيارة قريبًا.

في طريق عودتي للكوفي شوب، الذي توجهت إليه للقاء رمضان للبحث معه عن طريقه لتصفية المشروع، قابلت ذلك الرجل المسن بائع البطاطا، في يوما بدا أنه اليوم المثالي لقلبي كي يرق ويحنو على أولئك المسنين الضعفاء، ناولته ورقة بخمسة جنيهات دون أن أتحصل منه على شئ مقابلها، حتى أنه نادى على كثيرًا حاملا ورقة تحمل حبات البطاطا ، وذلك بعد أن وليت له ظهري سارحًا في مصيبتي.

غير أنني تذكرت أبي فجأة على صيحات الرجل ونداؤه علي، أين أبي من كل تلك الحنية التي أوزعها على أولئك المسنين، أليس أبي بأولى أن ينال قسطا من حنيتي تلك، كم أنا مقصرٌ دومًا معك يا أبي، ولكن كفى بقسوتي عليك، التي تأكدت اليوم أنني وقعت في مصيبتي تلك جزاءً لها.

*****

توجهت دون تفكير أو تردد صوب بيتنا القديم، قاصدًا أبي الذي سأعوضه اليوم حبًّا وحنانًا يعوضه ما لقاه مني من

جفاء وقسوة لسنوات عديدة، فوجئت بأن محل العطارة مغلق وعربة الحمص مستندة على الباب، بشكل يوحي بأنه مغلق منذ أيام، انتابني القلق من أن يكون قد أصاب أبي مكروه، أسرعت نحو البيت، فقابلني أحد جيراننا الذي كان يجلس معه دومًا أمام البيت، احتضنني بشكل مبالغ لم أتوقعه، ثم انهمرت الدموع من عينيه، مات أبي منذ عدة أيام وبحثوا كثيرًا عن ابنه الذي اختفى فلم يتمكنوا من الوصول إليه، مات أبي وحيدًا وقام جيراننا بتغسيله وتكفينه نيابة عني، لا بد أنهم انتظروني كثيرًا حتى أتقدم الصفوف لأؤم المصلين في الصلاة عليه، ولكنني تأخرت كثيرًا، حتى تقدم أحدهم الصفوف حاضرًا عني وأم المصلين في صلاة الجنازة، حتى حملوه ودفنوه في مدافن الصدقة.

obeikan.com

ماذا لو كان الموت يُنذرنا قبل أن يشرع في حصد أرواحهم، فيمنحنا الفرصة للتكفير عن آثامنا نحوهم

obeikan.com

obeikan.com

(٢٢)

لم أتصور أن هناك كآبة قد يبدو عليها بيتنا أكثر من الكآبة التي عشتها فيه عمرًا، ولكن وفاة أبي أكدت لي أن هذا البيت كان لا يزال يختزل مستويات أكبر وأعمق، من لون الكآبة القاتم، والتي أفرزها لحظة دخولي البيت بعد ما تلقيت نبأ وفاة أبي.

تمنيت الموت لأول مرة في حياتي، أنا الذي فعلت كل آثامي تجاه ماجد طمعًا في حياته التي راقت لي، وأنا الذي تخليت عن أبي حتى مات وحيدًا ولديه الولد الذي كان أولى به أن يلقنه الشهادة ويغسله ويكفنه، قبل أن يذرف دموعه وهو يرفع تكبيرة صلاة الجنازة وخلفه المشيعين، في الوقت كان

سيتملكهم فيه الأسى تجاه صوته المبحوح حزنًا ودموعًا، تركته يموت ويغسل ويكفن وتواريه الأيادي الغريبة الثرى في مدافن غريبة عليه، تركته أملا في حياة أفضل ساخطًا عليه وعلى حياته، وها أنا اليوم ألفظ تلك الحياة؛ الحياة التي تمنيتها، والحياة التي أثقلتني بآثامي وخطاياي تجاه من فارقوها.

obeikan.com

(٢٣)

رغبتي في التكفير عن ذنبي تجاه ماجد وأموال اليتامي التي أكلتها، دفعتني إلى مغادرة بيت أبي سريعًا في اليوم التالي، حتى أسرع في اتخاذ اللازم نحو مغادرة حياة ماجد، والعودة إلى حياتي القديمة، وهذا وإن لم يحقق لي الموت رغبتي في حصد روحي وتخليصي من آلام الحياة ككل.

بعد عودتي لشقتي التي استأجرتها سابقًا في مدينة نصر، عدت إلى هاتف ماجد بحثًا عن أي جديد في حياته، قد يساعدني في تكفير ما اقترفته في حقه، وذلك بعد أن توقفت عن البحث فيه من قبل، في اللحظة التي كنت قد عثرت فيها على هيام في ذلك الهاتف.

عالم آخر متسع وجدته على هاتف ماجد، خواطر وأشعار وكتابات تحمل ما تحمله من الألم، أكان ماجد متألما إلى ذلك الحد، في الوقت الذي كنت أتصور فيه أنه ينعم بحياة مترفة وسعيدة، راقت لي بشدة تلك الكتابات، وجدت بعضها محفوظًا داخل ملف بعنوان أحد المجموعات على موقع الفيس بوك، دخلت على تلك المجموعة من حسابي وتوغلت في البحث بها عن أي كتابات تخص ماجد، عثرت على منشورات منتظمة باسم ماجد، حازت على عدد كبير من الإجابات وتعليقات الاستحسان، وبالبحث بين ملف ماجد المحفوظ وبين منشورات المجموعة، استيقنت أمر ذلك الملف، إذ كان ماجد يحفظ عليه الكتابات التي سينشرها على صفحة المجموعة، فانتابني الحزن على كون تلك الإبداعات محبوسة بعد وفاة صاحبها، اخترت أكثر ما راق لي منها، وبدون تردد نشرتها على صفحة المجموعة باسمي (كريم على الأسيوطي)

*****

في أعقاب وفاة أبي مباشرة، كانت هيام قد اختفت فجأة، توقفت عن الحضور إلى الكوفي شوب، هاتفها مغلق باستمرار، حتمًا حدث جلل قد حدث، وأجبرها على الاختفاء، انتابني الاضطراب من اختفائها غير المعلوم سببه، فأنا لن أقبل بخسارتها بعد أن أصبحت على بعد خطوات من النيل منها.

جن جنوني بعد أن همس خاطري، بأن الوقت قد حان ليسحب مني القدر إرث ماجد كاملا، بعد ما حدث خلال الأيام القليلة الماضية، ولكن لا وألف لا، لن أسمح بخروج هيام من حياتي، فهي ما تبقى من تلك الحياة التي ترفض دومًا أن تمنحني السعادة كاملة.

obeikan.com

(٢٤)

لاقت كلمات ماجد التي نشرتها باسمي رواجًا كبيرًا بين متابعي تلك المجموعة الثقافية، وتلقيت إعجابات ورسائل ثناء عديدة دفعتني لتكرار النشر مما نقلته من على هاتف الفقيد ماجد، حتى صارت حياتي إلى شكل مرضي تمامًا ولكنه زائف، فالكلمات ليست كلماتي ولا أعي حتى معاني ما أنشره، غير أني وجدت سعادة في ذلك الأمر فاقت ما وجدته من سعادة وقتما حصلت على النقود التي غيرت حياتي من قبل، لم أتصور يومًا أن أكون صاحب موهبة يلتف حولها الجميع معجبين ومشيدين بما أكتبه.

ارتضيت نية خسارة مشروعي في سبيل التخلص من إثم

أموال اليتامي التي استوليت عليها، في مقابل الحفاظ على شكل المثقف الزائف، بالإضافة إلى سعيي للحفاظ على هيام وعدم التفريط فيها.

في ظل بحثي عن أي طريقة تمكنني من التواصل مع هيام، إذ فاجئتني هي باتصال هاتفي طالبة لقائي لأمر هام في مكان غير الكوفي شوب الذي اعتدنا الجلوس فيه، لم أتردد في تلبية طلبها أو تأجيله، إذ توجهت مباشرة إلى المكان الذي حددته.

أسئله مريبة ومتلاحقة وجهتها لي هيام منذ جلوسنا، عن علاقتي بماجد ومدى عمق صداقتنا، وإن كان حكى لي عن شئ يخصه، ارتبكت وتصببت عرقا، إذ تصورت الأمر أن هيام على علم بكل ذلك الكذب الذي أعيشه منذ وفاة ماجد، ولكنها بعد أن ترددت وتلعثمت كثيرًا طرحت على الأمر الذي فجعني، وذلك بعد أن حصلت مني على قسم بحفظ ما ستتلوه على من الحدث الجم، لم تكن هيام على علاقة غير شرعية بماجد كما كنت أتصور، ورقة زواج عرفي أخرجتها

هيام من حقيبتها، هي ما كانت تجمع بينهما، ليس هذا فقط ما أخرجته هيام من جعبتها، لقد تبقي من ما كان بينها وبين ماجد ما هو أعظم من تلك الورقة، حملا في بطنها تعدى عمره شهرين وبضع أيام قليلة.

*****

إلي متى ستظل الحقائق مستحية عن الظهور، حتى تصدمنا بظهورها المفاجئ، الذي يفعل بنا فعله من الصدمة والاندهاش، فحتى علاقة ماجد بهيام لم تكن كما تصورتها، ستظل الحياة تلعب معي هكذا حتى يتملكني الجنون، ليتني ما لعبت مع الحياة من البداية.

بعد تفكير طويل طال الليل بأكمله، في تلك الليلة التي فجعتني فيها هيام بمصيبتها، وبعد جلسات اللوم التي وجهتها لنفسي على سوء ظني بماجد وهيام، وبعد أن فكرت كثيرًا في طريقة تفضي بي في النهاية إلى النيل من هيام، اتصلت بها وطرحت عليها حلا لمصيبتها، أعقد قراني عليها شهامة مني، حتى تخبئ خلفي مصيبتها التي أجمع الأطباء

على صعوبة التخلص منها في تلك الفترة من الحمل.

obeikan.com

(٢٥)

لم يكن الأمر بالسهل على هيام، أبدت استغرابها من كلامي ثم أعربت عن عجزها عن تفسير عرضي، ولكنها كانت صادقة في نوبة الغضب التي اعترتها جراء ذلك العرض الغريب الذي ألقيته عليها، ثم طلبت مني إنهاء المكالمة بسبب عجزها عن تفسير الموقف.

اختفت بعدها هيام لأيام، امتنعت فيها عن الرد على مكالماتي، حاولت الوصول إليها من خلال الاتصال بها من أرقام مختلفة، فكانت تشرع في إغلاق الخط فور سماعها لصوتي، جن جنوني واستنتجت شناعة ما عرضته عليها، والذي سيترتب عليه بالطبع فقداني لها، فهي تصورت

obeikan.com

بالطبع أنني أطمع فيها وأستغل الموقف للحصول على قلبها.

مرت أيام أخرى زاد إحساسي فيها بأن النهاية قد أوشكت وأنني على أبواب أن أفقد حياة ماجد كاملة بما فيها هيام، حتى جائني اتصال مفاجئ من صديقتها بسمة، تلك التي كانت برفقتها يوم أن جلست معها للمرة الأولى، طلبت مني مقابلتها في الكوفي شوب لأمر هام، هرولت إليها بحثًا عن أي خيط قد يعيد المياه إلى مجاريها مع فتاة أحلامي، فاتحتني في الأمر مباشرة، عرضت وجهة نظر هيام كما تصورتها تمامًا، فهي تشعر أنها صارت فريسة لكل طامع فيها، استطعت من خلال مشاعري الصادقة التي أكنها لهيام، أن أقنع صديقتها ببراءة قصدي وصدق مشاعري، التي تحتم عليَّ الوقوف إلى جوارها حتى وإن حملني ذلك إبنًا ليس لي، إتصلت بهيام أمامي وشرحت لها الموقف كما صدقتني تمامًا، ثم أنهت المكالمة قبل أن تخبرني بأن هيام طلبت مزيدًا من الوقت للتفكير في الأمر.

حسنًا فعلت هيام بطلبها مزيد من الوقت لمراجعة تلك

الفكرة الخطيرة التي سيكون لها أثر كبير على حياتي وحياتها، كانت الفترة التي اقترحتها هيام للتفكير فرصة لي لتقييم ذلك القرار الصعب الذي اتخذته على عجل وتسرع كما رأت هيام وصديقتها المقربة، ولكن تلك الفترة التي عكفت فيها على التفكير في عظيم ما سأقدم عليه، لم تزدنِ سوى إصرار على ما اقترحته عليها، فقد تحدثت مع نفسي كثيرًا في ذلك الحمل الثقيل الذي سأحمله، ولكن لم يكن باستطاعتي الرجوع عما انتويت عمله، فكيف لي بأن أرجع عن طريق سأنال فيه الحب الأول في حياتي، الحب الذي انتظرته وتمنيته كثيرًا، كيف لي بأن أفرط في الفتاة التي أثارتني منذ اللحظة الأولي التي طالعت فيها صورها، وتمنيت لو أختلي بجسدها ولو لدقائق معدودة، حتمًا سأضمن بقراري هذا أن أحيا بقية عمري سعيدًا، وهل هناك سعادة أكبر من أن أغفو عيناي ليلا على سرير واحد مع أميرتي الجميلة، وأن أستيقظ صباحًا على وجهها الرقيق، أما مسألة الطفل القادم إلى الحياة، والذي سأنسبه إلى اسمي، فإنني سأقبل

على ذلك إهداء لروح ماجد، تكفيرًا لإثمي الذي اقترفته نحوه، على أن أحظو بما تبقى من إرثه المتمثل في كتاباته وحبيبته التي سيقر القدر حتما بأحقيتي في الحصول عليها.

*****

بعد أن عادت هيام للرد على اتصالاتي التليفونية، وبعد شد وجذب كبير معها، في محاولات عديدة لإثنائها عن الرفض، تمكنت من إقناعها بقبول اقتراحي، وبعد أن أقنعت جدتها وخالها بسرعة عقد قرانها علي، بسبب سفر العريس المفاجئ، ذلك السفر الذي لا بد معه من عقد القران سريعًا، تم عقد قراننا في منزلهم في حفل بسيط حضره جدتها وخالها وأسرته وصديقتها بسمة، على أن نكمل كذبتنا فيما بعد بأن الحمل قد نتج عن خلوتي معها قبل سفري المزعوم، وفقا لما رأينا من سهولة ذلك الأمر عن صعوبة أن تواجه عائلتها بطفل بلا عقد زواج.

(٢٦)

بعد عقد قراني على هيام، والذي تأجلت معه دخلتي عليها لما بعد وضع طفلها، وفقا لما أكده عليها الأطباء باستحالة اقتراب زوجها منها خلال فترة الحمل، غيرت خطتي تمامًا وعدلت عن فكرة إنهاء مشروعي وإعادة ما سيجنيه إلى اليتيمات أصحاب الحق فيه، فقد قررت الاستمرار في مشروعي الذي سيضمن لي استقرار حياتي الجديدة، التي سأكون فيها مسئولا عن زوجة وبيت وطفل، على أن أطهر إثمي بدعم اليتيمات، وكل أعمال الخير التي كان يقوم بها الفقيد ماجد خاصة التكفل بعادل وإخواته.

شرعت في تلك الخطة الجديدة بعد أن حملت مبلغًا من المال وانتويت السفر إلى عادل وإخواته، بعد الانتهاء من

اجتماع ثقافي دعاني إليه أولئك المتابعين لكلمات ماجد التي واظبت على نشرها على صفحة مجموعتهم.

توتر شديد انتابني قبل الذهاب إلى ذلك التجمع، ولكن سعادتي بما صرت عليه من كوني أحد أولئك المثقفين، غلب على توتري، فيا لها من سعادة بالغة أن يصير من وقف يومًا خلف عربات الكشري والكبدة ومن ركب دراجة الدليفري البخارية، إلى شخص مثقف واع يطلب أخلائه من المثقفين لقائه.

إرتديت سترة عصرية بنية اللون أحضرتها خصيصًا لهذا التجمع، وحملت على كتفي حقيبة كتلك التي أرى المثقفين يحملونها، بعد أن وضعت بها بعض الصحف والمجلات الأدبية وبعض الدواوين الشعرية والروايات التي اشتريتها من بائعي الصحف المتواجدين على الأرصفة.

استقبلني الحضور استقبالا حارًا زاد من توتري، فأنا أعلم جيدا أنني لست أهلا لهذا الترحاب، الذي يستند بالطبع لما رسموه في عقولهم عني نتيجة لما قرأوه مما نشرته، فسحبت

مقعدي في دائرة التفت حولها مقاعد أولئك المثقفين، في ذلك المقهى العتيق ذي السقف العالي، في حين غلبت ديكورات الأرابيسك الكلاسيكية أرجاء ذلك المقهي، الذي يختلف كليًّا عن كل المقاهي التي عملت بها قديمًا، أو حتى التي جلست عليها من قبل.

بدأ الحضور في إلقاء أبيات شعر ونصوص أدبية، يتبع كل منها تعقيب من الحاضرين، في نظام الدور بالمرور على مقاعد الجالسين، انسحبت من المكان قبل بلوغ دوري متعللا لمن كان بجانبي بدخول دورة المياه، وذلك خوفًا من الارتباك الذي أعلم جيدًا أنه سيعتريني عند بلوغ دوري، أخرجت هاتفي في دورة المياه، وبحثت على الإنترنت عن أي موضوع أدبي أطرحه، فيشغل الحاضرين عن مطالبتي بإلقاء شيء من كتاباتي المزعومة، لم أستطع أن أضع يدي على شئ مما كنت أبحث عنه وذلك نتيجة لارتباكي وتسرعي في البحث، حتى عثرت على صفحة تحوي قائمة بأهم الأدباء العالميين، صرت أحفظ أسمائهم بسرعة علِّي أجد أي شيء

أقوله.

ابتسم لي الحظ بعد رجوعي إلى تلك الجلسة، حيث انتهت فقرة الإلقاء، وتحولت الجلسة إلى المناقشات العامة التي لم أعي منها شيئًا، فلم أجد ما أقدمه سوى توزيع الابتسامات على الحاضرين.

تذكرت موعد سفري إلى محافظة سوهاج للقاء عادل وإخواته، فاستغليت فرصة استئذان أحد الحاضرين بالانصراف، واستأذنت للانصراف معه، أعرفه جيدًا من خلال مجموعتهم على الفيس بوك، وليد الذي تحدثت إليه أكثر من مرة من خلال المحادثات، وهو من دعاني لحضور ذلك التجمع، خرجت مع وليد متبادلين أطراف الحديث، ثم فتح شنطته وأخرج مجموعة من الكتب، طالبًا مني قراءتها حتى يناقشني فيها في وقت لاحق، لم أتبين من عناوينها سوى كلمة مشتركة في كل العناوين (الشيوعية)، استلمت منه الكتب ودسستها في حقيبتي، مسرعًا في الانصراف حتى لا تطول المناقشات فينكشف زيف ثقافتي.

(٢٧)

ركبت سيارة ميكروباص متجهة إلى سوهاج، قاصدًا الذهاب لتسليم الإعانة لعادل وإخواته، انزويت في الكنبة الخلفية للسيارة بجوار شابين يبدو أنهما عائدان من عملهما بالقاهرة، ذلك ما استنتجته مما دار بينهما من حوار، استسلمت لنوم عميق بعد أن بدأت الشمس تأخذ طريقها نحو المغيب، استيقظت فجأة على حركة قد دبت في السيارة، كان الظلام قد دمس إلا من أنوار كمين الشرطة، وأنوار الإنتظار التي أضاءها السائق، وصاحبها صوت مصابيح الانتظار وهمسات الركاب حول الكمين الذي اقتربت منه السيارة ببطء، حتى توقفت تمامًا ومد أحد أفراد الكمين

obeikan.com

يده لفتح باب السيارة، ثم دفع برأسه بداخلها متفحصًا الركاب، طلب إثبات الشخصية من أحد الركاب في وسط السيارة، ففاجأ الجميع بإقراره بعدم حمله إثبات الشخصية متعللا بأنه مصاحب لأخته وزوجها القابعين بجواره.

محاولات شد وجذب بين فرد الشرطة وذلك الراكب، انتهت بقدوم أحد الضباط الذي كشر عن أنيابه، وأمره بالنزول لتفتيشه، في الوقت الذي ألقى فيه نظرة فاحصة تجاهي أنا والشابين الجالسين بجواري، ثم اصطحب صاحب المشكلة لتفتيشه، ولم يلبث أن عاد وأمرنا بالنزول أنا والشابين الذين كانا بجواري.

تفتيشًا ذاتيّا بدأ بأحدهما الذي مر من تفتيشه بأمان، ثم أسفر تفتيش الآخر عن خروج لفافة ورقية من أحد جواربه، كانت تحوي مخدرًا ما لم أتبينه، ارتبكت جراء الموقف رغم عدم صلتي بهما، وبعد تفتيشي الذي لم يسفر عن شيء، أمر الضابط أحد أفراد الكمين باصطحابنا نحن الثلاثة نحو سيارة الشرطة بعد أن أمر السائق بالانصراف، لم تفلح

محاولاتي لإقناعه بعدم صلتي بهما رغم إقرارهما بذلك، استسلمت للموقف بعد أن بدأت معاملة الضابط تتغير إلى ما قد يهين كرامتي، فترجيته أن أحضر حقيبتي من السيارة التي بدأت بالتحرك، فأمر فرد الكمين بإحضارها بسرعة من السيارة، بعد أن ابتسم بسخرية قائلا :

ـــــ هاتها بسرعة لما نشوف فيها إيه دي كمان

شرع فرد الكمين في تفتيش حقيبتي بأمر من الضابط، فانتابني بصيص من الأمل، كونهم سيعملون الآن من كتبي التي أحملها، إنني شخص مثقف ولا أمت بصله لهما، وليتني ما أحضرت الحقيبة، فبعد تفتيش فرد الكمين للحقيبة، مد يده بالكتب إلى الضابط قائلا :

ـــــ ده شيوعي يا فندم

obeikan.com

(٢٨)

اسودت الحياة في عيني تمامًا، فيبدو أنني مقبل على مصيبة لا يعلم مداها إلا الله، فبعد اصطحابنا إلى قسم الشرطة، تم فصلي عن الشابين اللذين أتيت معهما، وتم وضعي وحيدًا في غرفة منفصلة، تقبع في الدور الأخير لقسم الشرطة، لم أتلق أي إجابة عن تساؤلاتي أو توسلاتي للجميع، حتى حضر أحد الضباط مرتديًا زيًا ملكيًا، وقام بتفتيشي مرة أخري، وأخرج هاتفي وهاتف ماجد الذي كنت أحمله، ثم قام بتفتيش بيانات الهواتف دون أن ينطق بكلمة واحدة، حتى بدأ صوته في قراءة بعض المنشورات المسجلة على هاتف ماجد، بدت الكلمات مزعجة له، حتى صارت مزعجة لي أنا أيضًا، حيث

تبينت معانيها، فكلها تحمل معاني ذا مغزي سياسي، حاولت أن أدافع عن نفسي، فنهرني مانعًا إياي من التفوه بأي كلمة، حتى انتهى من بحثه، أو بالأصح اكتفى بما وجده من كلمات كافية لإدانتي، ثم اصطحب الهواتف وخرج من الغرفة قبل أن يغلقها عليّ بإحكام.

صارت الأمور واضحة لي تمامًا، فكما منحني القدر إرث ماجد، أبى ألا أن يمنحني أزماته التي يبدو أنها ستقضي على ما تبقي من حياتي.

بعد بضع ساعات مرت عليّ في تلك الغرفة، حضر شخصان واصطحباني إلى سيارة مدنية، انطلقت بنا إلى جهة أخرى يبدو أنها جهه أمنية عليا، ثم تمّ إلقائي في غرفة حجز بها مجموعة من الشباب يبدو عليهم أنهم من تلك الفئة الثائرة أصحاب الرأي، شرعت في التعرف عليهم والاستفسار منهم عن سبب مجيئهم والذي هو بالتأكيد سبب مجيئي، مجموعة من الشباب ممن يطلقون عليهم نشطاء الفيس بوك، تهمتهم واضحة حيث دشنوا صفحة على الفيس بوك

للمطالبة بإطلاق سراح زملائهم ممن أُلقي القبض عليهم في إحدى المظاهرات.

لم يعد الأمـر يحتاج لتفسير، فقد تم الـزج بي مع هـؤلاء النشطاء بسبب الكتب التي كنت أحملها، وما أكد اتهامي كانت تلك المنشورات التي وجدوهـا على تليفون الفقيد ماجد.

*****

يومًا واحدًا قضيته مع هؤلاء الشباب بتلك الجهة الأمنية، ثم تمّ ترحيلنا في اليوم التالي في سيارة ترحيلات كبيرة إلى القاهرة، حيث سيتم التحقيق معنا بصحبة كل النشطاء الذين تم القبض عليهم من مختلف المحافظات.

obeikan.com

(٢٩)

أيام متتالية قضيتها مع تلك المجموعة في سجن مزرعة طرة، متنقلين بين غرف التحقيقات داخل السجن وبين النيابة التي اقتادونا إليها ثلاث مرات.

كنت مصرًا في الدفاع عن نفسي في كل جلسات التحقيق، أخبرتهم أنني كنت ذاهبًا إلى مدينة سوهاج لغرض الخير، وأن الكتب أهداني إياها شخص ما لم ألتق به سوى مرة واحدة، أطلعتهم على اسمه وحسابه على الفيس بوك، ولكن لم يقدم ذلك شيئًا أو يؤخر طوال جلسات التحقيق، كدت أن أخبرهم بحقيقة هاتف ماجد، ولكن خوفي من ضياع هيام إذا انكشفت الحقيقة، منعني من الإفصاح عن حقيقة

obeikan.com

الهاتف، تعللت لهم بأنني اشتريت الهاتف من محل هواتف محمولة، فعاجلني المحقق بالسؤال عن مكان المحل، فارتبكت حتى تأكد له كذبي، يبدو أن الأمور قد أحكمت عليَّ الزج بي مع هؤلاء النشطاء.

كان حبسي فرصة لالتقاط الأنفاس في مشوار حياتي، ذلك المشوار القصير المليء بالأزمات، تمنيت كثيرًا أن لو ما كان حدث كل هذا، تمنيت أن لو كنت لم أسطُ على حياة ماجد، التي منحتني السعادة في أولها ثم رمت بي في طريق لا يعلم نهايته إلا الله.

ولكنني كلما انتابني الندم تجاه ما فعلته بنفسي، كلما شعرت بتأنيب الضمير من سخطي على الأقدار التي منحتني هيام، نعم يكفيني هيام من كل هذا، سأتحمل كل تلك الأزمات انتظارًا للحظة التي ستجمعني بها، أنهم من جمالها ورقتها، من المؤكد أنني سأخرج من محبسي في القريب العاجل، فتهمتي ليست بالحجم الذي سيطيل إقامتي هنا، ربما كانت أزمة عابرة يخلصني بها الله من آثامي، جراء ما ارتكبته

من آثام منذ اليوم الذي التقيت فيه الفقيد ماجد، نعم سأخرج بعد أن أتطهر من آثامي لأنعم ببقية حياتي داخل أربعة جدران ستجمعني بفاتنتي.

*****

بعد ما يقرب من الستة أشهر التي لم يسأل فيهم عليّ أحد، وبعد جلستي محاكمة، لم تجد المحكمة تهمة واضحة للشباب التي كانت تهمتهم هي نفس تهمتي، فأفرجت عنا جميعًا، واستنشقت هواء الحرية لأول مرة منذ الزج بي في تلك القضية، وذلك بعد أن رحلوني إلى قسم شرطة إمبابة لاتخاذ إجراءات الإفراج عني من هناك كما صفحت لهم بطاقتي الشخصية.

obeikan.com

obeikan.com

(٣٠)

توجهت مباشرة تلقاء بيتنا في مطار إمبابة، لم يعد كئيبًا كما كان لي دومًـا، صرت أجد فيه راحة وسكينة بعد تلك الأيـام الصعبة التي عشتها في السجن، خلعت ملابسي تلك التي تحمل رائحة السجن وأيامه، ارتديت جلبابًا من جلاليب أبي وتحته سروال فضفاض من ملابسي الداخلية القديمة، والتي كنت قد تركتها في البيت بعد رحيلي لشقة مدينة نصر، شعرت براحة كبيرة في سروالي هذا، فأنا لم أخلق لارتداء تلك البوكسرات الضيقة، تلك هي الراحة التي أخطأت بلفظها يومًا ما، فقضيت ليلتي تلك على سريري ممدًا جسدي فاردًا ذراعي، غارقًا في جلباب أبي وسروالي

الواسع.

في اليوم التالي شرعت في الاتصال بهيام، كان هاتفها مغلقًا باستمرار، انتابني القلق عليها فخرجت قاصدًا الذهاب إليها بعد أن أمر على الكوفي شوب للاطمئنان على مشروعي.

فوجئت بأبواب الكوفي شوب مغلقة بشكل تبدو معه أنها مغلقة منذ أيام عديدة، فذكرتني بأبواب محل أبي عندما وجدتها مغلقة بنفس الشكل، فانتابني الشك من أن مصيبة ما ستحل عليّ بعد دقائق كمصيبة وفاة أبي، استفسرت من المحيطين، ففجعت عندما عرفت أن المحافظة قد أغلقت الكوفي شوب بسبب مخالفاته، اتصلت برمضان فكان هاتفه مغلقًا، أجريت اتصالات بإدارة الكوفي شوب ففجعت أكثر من ذي قبل، رمضان جمع معدات مشروعي وذهب إلى حيث لا يعلم أحد، أما الشقة التي كنت استأجرتها في مدينة نصر، فقد اكتملت فجعتي بعد ما ذهبت إليها، وعرفت أن رمضان قد جمع كل متعلقاتي منها وذهب، بعدما أنهى مالكها عقد الإيجار بعد تأخري عن سداد مستحقاته، جمع

رمضان ملابسي التي كنت أتزين بها في حياة ماجد التي اخترقتها، واستولى على مشروعي، جمع رمضان كل شيء وذهب تاركًا إياي تائهًا من جديد في تلك الحياة.

صادفني في الطريق وجه يبدو أنني التقيته من قبل، لم يمنحنِ الفرصة للتفكير في وجهه، مد يده إلى مصافحًا إياي قائلا : حمصه !

فجعني بمناداته لي باللقب الذي تخلصت منه منذ أمد بعيد، يبدو أن كل شيء من حياتي القديمة في طريقه للعودة، أنهيت لقائي به سريعًا بعد أن تذكرت جيدًا أنه أحد زملائي في غابة المدرسة الصناعية.

أكملت طريقي وليس في ذهني سوى هيام، لم يتبق لي سواها لأكمل حياتي بعد أن ضاع مني كل شيء، عاودت الاتصال بها أكثر من مرة، حتى انفتح هاتفها أخيرًا، ولكنني لم أسمع صوتها، جاءني صوت نسائي غريب، لم أهتم بمعرفة هوية صاحبته، بعد أن أخبرتني أن هيام تضع مولودها في المستشفى.

انطلقت مسرعًا إلى المستشفى التي أخبرتني عنها، في حين بلغ توتري مداه، فقد حانت لحظة تسلمي لإرث ماجد الأعظم، عند بلوغي المستشفى كان الوجوم قد حل بالجميع، وجوه حزينة وأعين باكية، في الوقت الذي تقدم خال هيام وربت على كتفي، ترى ما هي الفجيعة الجديدة التي ستحل بي، ربما فقدنا المولود، ولكنها لن تكون فجيعه لي، ارتحت قليلا لفكرة أن المولود قد مات، فأتخلص من لقيط كنت سأنسبه إليَّ مجبرًا، ولكن ما هي إلا لحظات حتى تعالت أصوات البكاء والنحيب، حين خرجت الممرضات من غرفة العمليات يسحبن سريرًا يحمل جسدًا مغطًي، ماتت هيام، ماتت وقد تركت لي مولودًا ناولتني إياه إحدى صديقاتها، عفوًا إنها مولودة، حملتها ووقفت وحيدًا في ممر المستشفي، بعد أن هرع الجميع خلف جثمان هيام.

*****

جاءني أحد موظفي المستشفي، وبعد أن قدم لي العزاء وأمطرني بكلمات المواساة، سألني عن اسم المولودة

فوجهت عيني تجاهها في نظرة يكسوها الحزن والحنان ناطقًا باسمها

ـــــ هيام

عاود السؤال عن اسم والدها، فلم أتمكن من الرد، أخذت دقائق من التفكير والحيرة بحثًا عن اسم والدها، اندهش الموظف كثيرًا لأمري لكنه كان مقدرًا لموقفي.

رفعت رأسي في وجه الموظف وأخبرته بالاسم:

ـــــ كريم على الأسيوطي

ثم عاودت الكلام قائلا:

ـــــ هيام كريم على الأسيوطي.

obeikan.com

obeikan.com

أما عن النهايات فاعلم أنها ستداهمك بغتة،
متلاحقة بشكل تصاعدي لن تملك أمامه سوى أن
تسلم بما آلت إليه الأمور.

أحمد جاد

obeikan.com

الكاتب في سطور

-أحمد السيد مصطفي جاد

-مواليد ١٩٨٢ بالمملكة العربية السعودية

-حاصل على ليسانس آداب في الفلسفة من كلية الآداب جامعة القاهرة ٢٠٠٤

-عمل صحفيّا في جريدة الجيل في الفترة من عام ٢٠٠٣ حتى عام ٢٠٠٧

-صدرت له من قبل رواية خواتيم من إصدارا دار إبداع ٢٠١٥

للتواصل مع الكاتب

ahmedgad82@hotmail.com

obeikan.com

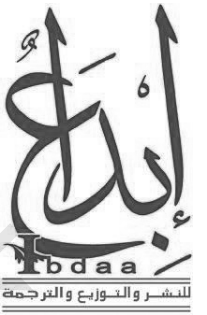

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com